الاستشراق

وأثره في الدّراسات اللغوية، وعلاقته بالسياسة

مقبل بن علي بن مشيعل الدّعدي

جامعة أمّ القرى - مكة المكرمة

العددان الثالث والرابع
رجـــــب ١٤٣٥هـ
مـــــايـــــو ٢٠١٤م

مجلة مجمع اللّغة العربية
على الشبكة العالمية

السيرة العلمية:

مقبل بن علي بن مشيعل الدّعدي

- بكالوريوس في اللّغة والنّحو والصّرف من جامعة أمّ القرى.
- ماجستير في اللّغة العربية والنّحو والصّرف من جامعة أمّ القرى: العلاقة بين أحرف الصّفير وأثرها في اللّفظ والمعنى.
- يعمل حاليًّا محاضرًا في قسم اللّغة والنّحو والصّرف بجامعة أمّ القرى بمكة المكرمة.

خلق الله عز وجل الخلق، وجعلهم شعوبا وقبائل وأمما مختلفة ومتباينة في النَّسَب واللغة والدين تقرّب بينها المصالح تارة، وتباعد بينها العداوات تارات و تسود أمة، وتفرض سيطرتها على الأمم، وتهيمن حضارتها على الأرض، وتسعى لنشر ثقافتها بين الناس إلى أن يشاء الله، ثم تقوم أمة أخرى لتقوم ما قامت به الأمة السابقة، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١٤٠].

و قد أسهمت الأمة الإسلامية في بناء الحضارة الإنسانية، وسيطرت على أجزاء كبيرة من المعمورة، ونشرت ثقافتها ودينها ولغتها العربية، فأصبحت لغتها لغة العلم والفكر والثقافة، يتنافس أعداؤها وأبناؤها على تعلمها، وشاركت الأمة الإسلامية في ميادين العلوم، وخلَّفت تراثا ضخما في شتى مجالات المعرفة، و لكن مع أفول نجمها، وضعفها وبزوغ نجم الغرب برزت ظاهرة تكاد تكون سمة لتلك الحقبة، هي توافد علماء الغرب من كل فج قاصدين الشرق. توافدوا لدراسة حضارة الشرق، ولغاته، وثقافته، و عاداته الاجتماعية، وجغرافيته، وتاريخه، وقد تركت هذه الظاهرة تراثًا ضخمًا لا يمكن تجاهله، فيما بين عامي ١٨٠٠م – ١٩٥٠م يقدر تراثها بحوالي ستين ألف كتاب، ومئات المجلات المتخصصة في الاستشراق تناولت كل ما يتعلق بالشرق، وطبقت عليه مناهجها، وما توصلت إليه من نظريات علمية.

هذه الظاهرة سُميت بـ (حركة الاستشراق)، فالاستشراق كما يقول يعض الباحثين: «علم يدرس لغات الشرق، وتراثهم، وحضارتهم،

ومجتمعاتهم، وماضيهم، وحاضرهم»[١]، والمستشرقون هم: «الكتاب الغربيون الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي، والحضارة العربية»[٢].

وكلا التعريفين - في نظري- قاصر، فالاستشراق ليس علمًا، أو لنقل ليس كلّه علمًا، فالعلم يُعنى بمطابقة الواقع، والتجرد في وصف الظواهر، ومحاولة تفسيرها وفهمها على ما هي عليه دون تزييف، أو تبديل، أو تحريف، وهو ما نجده في بعض الدراسات الاستشراقية، لكن الاستشراق أوسع دائرة من هذه الدراسات، فإلى جانب الدراسات العلمية نجد الروايات، والقصص، والخرافات المبنية على الخيال، وعلى ازدراء ما عدا الأوروبي، وهذه الروايات أسهمت في رسم صورة الشرق، وأثرت في تناول القضايا العلمية المتعلقة بالشرق، يقول: «دنيس هاي المؤلف الإنجليزي المعاصر: إن الاستشراق هو: رأي أوروبا ووجهة نظرها بالنسبة للشرق»[٣].

وفي البحث سأتحدث عن الموضوعية، وعدمها في البحث الاستشراقي، لكن أود التنبيه هنا على أن إطلاق لفظة العلم على الإنتاج الاستشراقي يخرج الكثير من الدراسات الاستشراقية التي بنيت على الخرافة والأوهام والتصورات المسبقة.

(١) سعدون الساموك، الاستشراق ومناهجه في الدراسات الإسلامية، دار المنهاج للنشر والتوزيع، عمان (ص ١٣).

(٢) مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، دار الإرشاد، بيروت (ص ٥).

(٣) محمد حسن زماني، الاستشراق والدراسات الإسلامية لدى الغربيين، ترجمة محمد نور الدين، المركز القومي للترجمة، القاهرة (ص ٥٩).

كما أنّ تعريف مالك بن نبي يخرج الدراسات التي قام بها العرب في مؤسسات استشراقية، فما الفرق بين دراستين في مؤسسة استشراقية كأقسام الدراسات الشرقية تناولت لهجتين عربتين بالوصف في الأصوات، والتراكيب، والدلالة إحداها قام بها أوروبي، والأخرى قدمها عربي مبتعث!

من وجهة نظري لا فرق بين الدراستين، فالباحث يُوظف أحيانًا في خدمة أهداف ليس بالضرورة أن يكون مدركًا لها سواء الباحث الغربي، أو العربي، ولا يعني هذا وصف الباحث العربي بالمستشرق، بل نقتصر على وصف دراسته بالدراسة الاستشراقية، وذلك بالنظر إلى المؤسسة الراعية للدراسة.

ومن الباحثين من يتوسع في مفهوم الاستشراق، فيجعل ضابطه دراسة غير المسلم للعلوم الإسلامية، فالاستشراق عنده: «تصدي علماء غير مسلمين، سواء من الشرق، أو الغرب، وسواء كانوا عربًا، أو غير عرب لدراسة علوم المسلمين وحضارتهم، ومعتقدهم، وتقاليد شعوبهم، وعاداتها، سواء كانت هذه الشعوب تقطن شرق البحر الأبيض المتوسط، أو الجانب الجنوبي منه، وسواء كانت لغة هذه الشعوب العربية أو غير العربية، كالتركية، والفارسية، والأردية، والبشتو وغيرها من اللغات التي تتحدث بها شعوب المسلمين، وكان لها آثار علمية أخضعها المستشرقون للدراسة والتحليل. وعليه فإن غير المسلم المشتغل بعلوم المسلمين يعتبر مستشرقا عندي، وذلك لأن المعيار هنا هو الكتابة عن الإسلام والمسلمين من قبل أولئكم الذين لا يدينون بالإسلام»[(١)].

(١) علي النملة، الاستشراق في الأدبيات العربية، مركز الملك فيصل للدراسات والبحوث، الرياض (ص ١٧).

وإن كانت التعريفات السابقة قاصرة، فأخرجت ما يدخل في الاستشراق، فهذا التعريف أدخل في الاستشراق ما ليس منه، فمصطلح الاستشراق مصطلح علمي أُطلق على دراسات محددة، ومن الخطأ تعميمه وإدخالُ غيره فيه إلا بضابط يكون مراعًى في المصطلح، والضابط الذي ذكره الباحث فيه إشكالات منهجية، فلو كتب بوذي عن عادات قريته التي أسلمت، وتقاليدها هل نعده مستشرقًا؟ وهل تعد دراسته دراسة استشراقية؟ وقل مثل ذلك في التركي غير المسلم الذي يدرس لغته التركية. ولو أسلم مستشرق هل نجعل دراساته لعادات بعض الشعوب الإسلامية قبل إسلامه استشراقية، وبعد الإسلام لو قام بدراسات مماثلة هل نعدها غير استشراقية!

ومن الإشكالات في هذا التعريف أنّه يجعل النصارى العرب الذين دافعوا عن العربية من المستشرقين، ومنهم من خاض معارك من أجل العربية، منها على سبيل المثال معركة مارون عبود مع طه حسين في الدراسة التي قدمها الأخير عن المتنبي، ، وبناءً على تعريف الباحث نجعل دراسة مارون عبود التي يدافع فيها عن التراث العربي دراسة استشراقية، ودراسة طه حسين التي ردد فيها أقوال المستشرقين غير استشراقية. ويلزم من هذا التعريف الحكم على إدوارد سعيد بالمستشرق، و هو الذي يكاد يكون مشروعه في حياته تفكيك الاستشراق، وبيان زيف الصورة التي رسمها عن الشرق. والسبب الذي جعل الباحث يوسع مجال الدراسات الاستشراقية صرّح به: «فلتكون [أي هذه الدراسات] موضع نظر، وتخضع لشيء من الدراسة والتحليل»[(١)]. وكأن الدراسات

(١) السابق.

الاستشراقية هي الجديرة وحدها بالدراسة والتحليل، وغيرها نسلم به. إنّ الدراسة والتحليل صفة لازمة لأي تراث، إسلاميًا كان أو غير إسلامي.

والتعريف الأقرب لتلك الحركة الاستشراقية، وتراثها هو: حديث الغرب عن الشرق. الحديث الذي يشمل كل إنتاج غربي عن الشرق، سواء الدراسات العلمية، أو الإبداعات الفنية، والغرب يشمل المؤسسات وكذلك الجهود الفردية.

هذا فيما يتعلق بتعريف تلك الظاهرة أمّا بداياتها وتطورها فقد تعددت آراء الباحثين وتباينت فيها، فمنهم من أرجع الاستشراق إلى زمن بعثة الرسول ﷺ، وذلك في مراسلة قيصر الروم، وفي هجرة الصحابة رضوان الله عليهم إلى الحبشة، والغزوات والفتوحات، وبالاطلاع على الكتب التي تحدثت عن بدايات الاستشراق نجد تواريخ ممتدة كلها زُعم أنها بداية للاستشراق، فقد قيل في: القرن الثامن الميلادي، وقيل في العاشر، وقيل في الثالث عشر[(١)].

أمّا مصطلح الاستشراق الذي أطلق على الظاهرة الجماعية، لا الوقائع الفردية المختلفة المتفرقة، فإنه بدأ في القرن الثامن عشر يقول السباعي: « لم يعرف بالضبط من هو أول غربي عني بالدراسات الشرقية، ولا في أي وقت كان ذلك، ولكن المؤكَّد أنَّ بعض الرهبان الغربيِّين قصدوا الأندلس في إبَّان عظمتها ومجدها، وتثقَّفُوا في مدارسها، وترجموا القرآن والكتب العربية إلى لغاتهم، وتلمذوا على علماء

(١) انظر: كتاب علي النملة، الاستشراق في الادبيات العربية (ص٢٣) وما بعدها.
وانظر: كتاب أحمد سمايلوفتش، فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، دار الفكر العربي/القاهرة (ص ٥٤) وما بعدها.

المسلمين في مختلف العلوم وبخاصة في الفلسفة والطب والرياضيات ... ولم ينقطع منذ ذلك الوقت وجود أفراد درسوا الإسلام واللغة العربية، وترجموا القرآن وبعض الكتب العربية العلميَّة والأدبية، حتى جاء القرن الثامن عشر، وهو العصر الذي بدأ فيه الغرب في استعمار العالم الإسلامي والاستيلاء على ممتلكاته فإذا بعدد من علماء الغرب ينبغون في الاستشراق، ويصدرون لذلك المجلاَّت في جميع الممالك الغربية، ويغيرون على المخطوطات العربية في البلاد العربية والإسلامية، فيشترونها من أصحابها الجهلة، أو يسرقونها من المكتبات العامة التي كانت في نهاية الفوضى، وينقلونها إلى بلادهم ومكتباتهم، وإذا بأعداد هائلة من نوادر المخطوطات العربية تنتقل إلى مكتبات أوروبا بلغت في أوائل القرن التاسع عشر مائتين وخمسين ألف مجلداً، وما يزال هذا العدد يتزايد حتى اليوم. وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر عقد أول مؤتمر للمستشرقين في باريس عام ١٨٧٣، وتتالى عقد المؤتمرات التي تلقى فيها الدراسات عن الشرق وأديانه وحضارته»[(١)].

إذا نستطيع تحديد هذه الظاهرة بالقرن الثامن عشر، ولا يعني ذلك إغفال الإرهاصات التي سبقتها كصدور قرار مجمع فيينا الكنسي بإنشاء كراسي للغة العربية في الجامعات الأوروبية في القرن الرابع عشر، ولكن العمل المؤسسي الضخم كان بعد ذلك.

يقول إدوارد سعيد: «فإذا اعتبرنا القرن الثامن عشر نقطة انطلاق عامة إلى حد بعيد، استطعنا أن نناقش، ونحلل الاستشراق بصفته

(١) مصطفى السباعي، الاستشراق والمُسْتَشْرِقُونَ (ما لهم وما عليهم)، دار الوراق للنشر والتوزيع (ص ١٧) وما بعدها.

المؤسسة الجماعية للتعامل مع الشرق، والتعامل معه معناه التحدث عنه، واعتماد آراء معينة عنه، ووصفه، وتدريسه للطلاب، وتسوية الأوضاع فيه، والسيطرة عليه»[(١)].

وبعد هذه المقدمة نأتي لمشكلة البحث التي أحاول حلها، ولفرضياته التي أسعى لتأكيدها أو نفيها بالأدلة العلمية. فمشكلة البحث مركبة من جزأين. الأول: أثر الاستشراق في الدراسات اللغوية العربية، هل حركة الاستشراق أثرت في الدراسات اللغوية العربية ؟

وأنا أتحدث هنا عن مطلق التأثير، وعن وقوعه دون الحكم عليه بالقبول أو الرفض.

وما أبرز ملامح تأثير الاستشراق على الدراسات اللغوية العربية؟ أهو تأثير على مستوى منهج البحث أم هو تأثير في القضايا العلمية، أم يشمل هذا وذاك؟

أما الجزء الآخر فهو ما يتعلق بعلاقة الاستشراق بالسياسة الغربية، فهل الاستشراق وجه الاستعمار الثقافي الفكري؟ هل نشأ الاستشراق لخدمة الاستعمار؟ هل نحكم على كل مستشرق بأنه عميل للاستعمار؟ أليس من بينهم المنصف الموضوعي؟ كيف أفادت الدراساتُ اللغوية، والآراء العلمية السياسيةَ الاستعماريةَ؟

هذا ما سنحاول الإجابة عنه في الصفحات التالية؛ لنصل في النهاية إلى تأكيد الفرضية التالية أو نفيها:

(١) إدوارد سعيد، الاستشراق، ترجمة محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى (ص ٤٥).

إذا استطعنا أن نربط الاستشراق بالسياسة، ونثبت علاقته بها، واستطعنا كذلك رصد تأثير الاستشراق على الدراسات اللغوية العربية نقول: إن السياسة لها تأثير على الدراسات اللغوية، وذلك من خلال الأنموذج المدروس.

وبناء على مشكلة البحث، وفرضياته قسمت البحث إلى العناصر التالية:

١- أثر الاستشراق في الدراسات اللغوية العربية.

٢- علاقة الاستشراق بالسياسة.

٣ أهداف الاستشراق.

٤- الخاتمة.

١- أثر الاستشراق في الدراسات اللغوية العربية.

تحدثنا في المقدمة عن تناول المستشرقين العلوم الإسلامية والتراث العربي بالدرس والتأليف، ولم يخلُ فرع من فروع العلوم الإسلامية من تناول المستشرقين، والقارئ للدراسات الحديثة يدرك ذلك، فأصبح الاستشراق نقطة تحول في مسار تاريخ هذه العلوم لا يمكن تجاهله، بل أثر المستشرقين في التفكير الإسلامي بينٌ لكل متابع لتطورات الفكر الإسلامي، كيف وقد هُيأت لهم المنابر الإعلامية، والمؤسسات العلمية، والاستعانة بهم في مناقشة قضايا الأمة المتعلقة بالتعليم وغيرها من القضايا الخاصة بنهضة الأمة! فالمستشرقون شاركوا في المجامع العلمية العربية، ففي مجمع دمشق مثلا « قائمة أعضاء المجمع التي ظهرت في الجزء الأول من المجلد السابع(كانون الثاني) ضمت ثمانية وثلاثين اسمًا. وكانوا يتفاعلون مع الكتّاب والمؤلفين والباحثين والمفكرين العرب في القراءات والدراسات والنتاجات المشتركة والمؤتمرات والندوات، ويقيمون معهم شتى الحوارات»[(١)].

و قل مثل ذلك في الجامعات العربية، فإنها استقدمت المستشرقين، واستقطبتهم للتدريس في كلياتها، ومكنتهم من عقول أبنائها، وطَبعت محاضراتهم. يقول أحد المستشرقين: «وقد أحس رجال الأدب في مصر بهذه الحاجة الماسة - دراسة اللغات السامية - يوم إنشاء الجامعة المصرية سنة ١٩٠٨م، فاستقدموا كبار المستشرقين لتدريس اللغات

(١) محسن الموسوي، الاستشراق في الفكر العربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب (ص١٢٠).

السّامية بكلية الآداب، وكان ذلك بداية العناية بدرس اللّغات السّامية بجانب اللّغة العربية»[١].

هذا النّصّ يؤكد ما ذكرناه سابقًا، ويبيّن قناة من قنوات التّأثير على الدّراسات اللّغوية العربية إلى جانب المجامع العلمية فالجامعة المصرية «كانت منبرًا من منابر رواج المناهج الغربية في الفكر المصري، وخاصة الأدب ونقده، واللغة وعلومها، و كان هذا أثرا من آثار أولئك الأساتذة المستشرقين الذين استعانت بهم الجامعة لإلقاء المحاضرات على طلابها»[٢]. هذا ما أورده أحد الباحثين ممن كتب عن اتجاهات الدّرس اللّغوي في العصر الحديث، وبعد أن سرد بعض أسماء المستشرقين الذين درّسوا في الجامعة المصرية يقول: «ويطول بنا الحديث لو استعرضنا أسماء هؤلاء المستشرقين؛ إذ إنه ما من قسم من أقسام الجامعة المصرية إلا وفيه أستاذ، أو أساتذة زائرون»[٣].

والقناة الثّالثة التي استطاع الاستشراق من خلالها التّأثير على الفكر الإسلامي بصفة عامة، والتفكير اللغوي بصفة خاصة البعثات العلمية، فإلى جانب التأليف العلمي، واستقطاب المستشرقين في المؤسسات العلمية يأتي ابتعاث الطلاب؛ لإكمال دراستهم في الجامعات الأوروبية، وتتلمذهم على أيدي المستشرقين؛ ليسجل جانبًا من جوانب التّأثير على الدّراسات اللّغوية العربية، ودارسيها، وازداد تأثيرهم على الدّراسات

(١) إسرائيل ولفنسون، تاريخ اللغات السامية، لجنة التأليف والترجمة والنشر، مقدمة المؤلف.

(٢) عبد الرحمن العارف، اتجاهات الدراسات اللسانية المعاصرة في مصر، الكتاب الجديد، الطبعة الأولى (ص ٤٣).

(٣) السابق (ص ٤٦).

اللّغوية العربية؛ لأنّ هؤلاء الطلاب العائدين من الابتعاث تسلموا مناصب تعليمية مكنتهم من تعديل المناهج وتغييرها، متأثرين بما رأوه في الجامعات الغربية.

إذًا فالتأليف العلمي، وتحقيق الكتب ونشرها، واستقطاب المستشرقين في المؤسسات العلمية، والبعثات العلمية هي قنوات التّأثير ومنابره، وهذه حقيقة لا يسع الباحث إلا قبولها.

ولكن ما الأثر المترتب على اتصال اللغويين العرب بالمستشرقين من خلال هذه القنوات ؟

يكاد يجمع الباحثون ممن تناولوا الدرس اللغوي العربي الحديث، ورصدوا تحولاته وتغييراته، وعوامل التأثير فيه، وجوانب التجديد، على تأثر الدراسات اللغوية العربية في العصر الحديث ودارسيها بالمستشرقين، ودراساتهم.

يقول أحدهم: «لا أحد يمكنه أن ينكر أن المستشرقين دشنوا مرحلة جديدة في قضايا لغوية ذات أهمية بالغة بالنسبة للغة العربية»[(١)].

ويقول آخر وهو يرصد تأثر اللّغويين العرب بالمستشرقين، والإعجابَ بطرحهم، وتناولِهم للقضايا اللغوية: «يكفي أن نعلم أن هذه الدراسات الجديدة قد أثارت إعجاب بعض اللغويين الأدباء، مما جعلهم يحضرون الدروس التي يعطيها هؤلاء المستشرقون لطلاب الجامعة المصرية، ومن هؤلاء إبراهيم مصطفى، وأحمد أمين، وبذا يتضح لنا

(١) مصطفى غلفان، اللسانيات في الثقافة العربية الحديثة، شركة النشر والتوزيع المدارس/الدار البيضاء (ص ٩١).

مدى إسهام المستشرقين الزائرين للجامعة المصرية في تطور الدراسات اللسانية المعاصرة في مصر»[١].

ويدل هذا النص دلالة واضحة على مكانة المستشرقين في الجامعة، وفي نفوس أساتذتها، وهم يحضرون مستمعين منصتين بإعجاب مع النشء جنبًا إلى جنب، وغيرُ خافٍ الأثرُ النفسي، والتربوي في نفوس الطلاب بسبب حضور كبار الأدباء تلك الدروس مما يكسب كلام المستشرق قداسة وهيبة.

ومما يؤكد مكانة المستشرقين في الجامعة ما ذكره أنور الجندي حيث يقول: «كانت الجامعة المصرية في الثلاثينات قد وقعت تحت سيطرة المستشرقين ودعاة التغريب، ولذلك عمدت إلى مصادمة مشاعر العرب والمسلمين والمصريين احتفلت بمرور مائة عام على ميلاد الفيلسوف الملحد أرفست رينان صاحب نظرية (الآرية والسامية) والكاتب الغربي الاستعماري الذي هاجم التراث أشد هجوم واتهمهم بالضعف في النقل والقصور في التفكير والذي هاجم الإسلام أعنف هجوم»[٢]. رينان الذي يستحي بعض المستشرقين من ذكر أقواله، فهي جلية في التعصب على الإسلام، تحتفل جامعة عربية به، وهو يراها متخلفة بالفطرة!

ومن قبل يؤكد عبد الصبور شاهين تأثير المستشرقين في عقول الأجيال من أعمالهم و تآليفهم، فيقول: «كما كانت أعمال المستشرقين الأوروبيين من عوامل التأثير في توجيه أجيال العلماء إلى معالجة قضايا

(١) اتجاهات الدراسات اللسانية المعاصرة في مصر/ص ٤٨
(٢) أنور الجندي/ المعارك الأدبية/ المكتبة الشاملة/ ٤٩٠

اللغة، وكنوز التراث بعقلية جديدة»[١]. و كلامه لا يحتاج لمزيد بيان، فنمط جديد قد أحدثه المستشرقون في معالجة اللغة، وقضاياها.

أما عن أثر الابتعاث العلمي فانظر إلى كلام أنيس فريحة عند حديثة عن النزعة التجديدية في الدرس اللغوي، ويعزوها لهؤلاء الذين درسوا في الجامعات الغربية، يقول: «يتزعم هذه الحركة في بلادنا جماعة ممن درسوا علم اللغة الحديث في الغرب ثم عادوا إلى بلادهم؛ ليطبقوا هذا العلم الجديد على العربية»[٢].

وأمر تأثير البعثات العلمية على دارسي اللغة العربية أشهر من أن أدلل عليه، فجل من تحدث عن تطوير المناهج اللغوية وتغييرها هم من هؤلاء الطلاب المبتعثين.

هذه شهادات من رَصَدَ تطور الدرس اللغوي في العصر الحديث، والعوامل التي ساعدت على ذلك، والظروف التي هيأت لتلك التغيرات.

وإلى جانب تلك الأقوال العامة في تأثر دارسي اللغة العربية بالاستشراق هناك أقوال توكد التأثير، وتحدد اسم الباحث الذي تأثر بالدراسات الاستشراقية، كطه حسين، وسلامة موسى، ومندور، وإبراهيم أنيس، وجرجي زيدان، وأنيس فريحة، ومهدي المخزومي، وغيرهم من دارسي اللغة العربية وآدابها.

(١) في علم اللغة العام، مؤسسة الرسالة/ بيروت، الطبعة السادسة (ص ١٣).
(٢) نظريات في اللغة، دار الكتاب اللبناني/ بيروت، الطبعة الثانية (ص١١٥).

فجرجي زيدان متأثرٌ بالمستشرقين وآرائهم، بل يقول مَنْ تتبع آراءَه، ودراساتِه: إنه «لم يعارض المستشرقين مثلا في أي أمر من أمور اللغة، أو يحاولْ الرد على ما افتراه هؤلاء»(١).

وذُكر كذلك تأثر الناقد محمد مندور في كتابه (النقد المنهجي عند العرب) بالمستشرق بلاشير الذي تأثر به كذلك طه حسين في كتابه (مع المتنبي)(٢).

وانظر لوصف رمضان عبد التواب المفتونين بالمستشرقين الذين نَصَبوا العداء للغة العربية: «وقد قاد هذه الحملة الشرسة أقوام من المستشرقين، وتعاون معهم ذيولهم في الوطن العربي، ممن يتسمون بأسماء عربية: سلامة موسى، وعبدالعزيز فهمي، وأنيس فريحة، وسعيد عقل، وغيرهم، ومالهم من العروبة إلا هذه الأسماء، أما قلوبهم، وأما اتجاههم فإلى الغرب، ضد العربية وضد الدين»(٣).

ومما يؤكد تأثير المستشرقين: المعركة التي دارت بين طه حسين وزكي مبارك، فالأول يمثل الاتجاه المعجب بالمستشرقين، والثاني يمثل

(١) أحمد سمايلوفتش، فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، دار الفكر العربي/ القاهرة (ص ٣٦٧).
وانظر كذلك: عبد الحسن الزويني، البحث اللغوي في دراسات المستشرقين الألمان: العربية أنموذجا، جامعة الكوفة. فقد أكّد على تأثر جرجي زيدان بالمستشرقين.

(٢) حسن الإمراني، المتنبي في دراسات المستشرقين الفرنسيين، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الأولى (ص ٣٩٦-٣٩٧).

(٣) العربية الفصحى والقرآن الكريم أمام العلمانية والاستشراق، زهراء الشرق/ القاهرة (ص ٢١).

الاتجاه الرافض. يقول أنور الجندي: «قد اعترف أحد المستشرقين بحقيقة التبعية الفكرية حين قارن بين آراء طه حسين في (الشعر الجاهلي) وآراء زكي مبارك في (النثر الفني) قال: إذا قرأنا فكر طه حسين قلنا: ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَا﴾، فلما عاد زكي مبارك وعارض اتجاه التغريب لقي العنت في الجامعة وفَصَله طه حسين»[(١)].

وفي موضع آخر يتحدث عن هذه المعركة وعن تحليل النقاد لها ولأسبابها، فيقول: «وتستمر المعركة بينهما طويلة لا تنتهي ... ويرى النقاد أن هذه المعركة لها صلة بالتغريب ونفوذ المستشرقين وآرائهم وتبعية المثقفين الذين يتلقون دروسهم في (السربون) في ترويج آراء الغرب والإيمان بها ويقولون: إن آراء طه حسين في الشعر الجاهلي كانت آراء مسيو مرسيه وغيره، وأن زكي مبارك حين ناقض هذه الآراء إنما أراد أن يتحرر من سلطان المستشرقين الفكري والتغريبي، ولذلك أغروا به طه حسين الذي فصله من الجامعة، وألجأه إلى العمل في مجال آخر حتى يكون عبرة لغيره»[(٢)].

وإن صدقت تلك التحليلات التي تربط المعركة بالبعد الاستشراقي فهي دلالة لا لبس فيها على تغلغل المستشرقين في الجامعات العربية في تلك الفترة، والسيطرة عليها، وعلى سيرها، ومناهجها، وأساتذتها، وآرائهم، فهي تملي عليهم ما ينبغي أن يكون، وفيها دلالة خطر الخروج عن الخطة الاستشراقية، فمجابهة الاستشراق وأدواتِه تعرض الأستاذ لأشد العقوبات، تصل ربما للطرد من المؤسسة التعليمية كما فُعل بزكي مبارك.

(١) المعارك الأدبية (ص ٨).
(٢) المعارك الأدبية (ص ٦٧٢).

أما أقوى الأدلة على تأثر الدراسات اللغوية العربية، ودارسيها بالاستشراق فيتمثل في الدعوة إلى الأخذ من الدراسات الاستشراقية، والثناء عليها، فالقول ما قاله المستشرقون، والمنهج ما سار عليه المستشرقون، وسأسرد بعض النماذج لهذه الثناءات:

يقول طه حسين: «كيف تتصوَّر أستاذًا للأدب العربي لا يُلِمُّ ولا يُنتظر أنْ يُلِمَّ بما انتهى إليه الفرنج (المُسْتَشْرِقُونَ) من النتائج العلمية المختلفة حين درسوا تاريخ الشرق وأدبه ولغاته المختلفة، وإنما يُلتمس العلم الآن عند هؤلاء الناس، ولا بُدَّ من التماسه عندهم؛ حتى يتاح لنا نحن أنْ ننهض على أقدامنا، ونطير بأجنحتنا، ونسترِدَّ ما غلبنا عليه هؤلاء الناس من علومنا وتاريخنا وآدابنا»[(١)].

يعلق السّباعي على كلام طه حسين بقوله: «ولا ريب في أنَّ هذا الكلام يمثِّل دورًا من أدوار العبودية الفكرية التي مررنا بها في مطلق نهضتنا العلميَّة والفكريَّة الحديثة، وهذه العبودية تتمثَّل في كتاب الدكتور طه حسين نفسه (الأدب الجاهلي) الذي كان ترديدًا مخلصًا لآراء غُلاة المُسْتَشْرِقِينَ المُتعصِّبين ضد العرب والإسلام أمثال "مارجليوث" الذي نقل آراءه كلها في كتابه (الأدب الجاهلي) ونسبها إلى نفسه وليس له في الكتاب رأي جديد نتيجة بحث عِلْمِيٍّ قام به أو تعب في سبيله»[(٢)].

يقول لويس شيخو: «لله دَرُّ المستشرقين ما أعظم كَلَفَهم بأخبار شرقنا العزيز، وأشدَ تنقيرِهم عن لغاتنا، وآدابنا، وعلومنا القديمة»[(٣)].

(١) في الأدب العربي، لجنة التأليف والترجمة والنشر/ القاهرة، الطبعة الثالثة (ص١١).
(٢) الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم (ص١٠-١١).
(٣) طارق سري، المستشرقون ومنهج التزوير والتلفيق في التراث الإسلامي، مكتبة النافذة، الطبعة الأولى (ص ٩٢).

ويقول إبراهيم السّامرائي في حديثه عن المعرّب: إنّ المستشرقين والباحثين في العصر الحديث «أرسخ قدمًا، وأهدى طريقًا في الوصول إلى الحقائق من اللغويين العرب الأوائل الذين كانوا يطلقون الأحكام في الأصول المعرّبة من غير أن يكون لهم علم أكيد»(١).

ويقول رمضان عبدالتواب، وهو يفسِّر سرّ تفوق المستشرقين في دراساتهم: «ونفسّر بهذا الأمر سرّ تقدم المستشرقين، في دراستهم للغة العربية، ووصولهم فيها إلى أحكام لم يسبقوا إليها؛ لأنهم لا يدرسون اللغة العربية في داخل العربية وحدها، بل يدرسونها في إطار اللغات السامية على المنهج المقارن»(٢).

فالكاتب تجاوز مرحلة تقويم عمل المستشرقين، إلى البحث عن أسباب قوة هذه الدراسات، وتميّزها، وكأن تقدمها أمر مسلم به، لا ينكره إلا جاحد مكابر!

قارن هذا القول الأخير بقول رمضان عبد التواب السابق حينما وصف اتباع المستشرقين بالذيول، فهل وقع عبد التواب فيما أخذه على سلامة موسى ومَنْ معه ممن تبع المستشرقين، وأثنى عليهم، وعلى دراساتهم ؟

وبعد أن تحدثنا عن قنوات التأثير والأدلة على ذلك، نأتي إلى أبرز ملامح التأثيرات والتغييرات التي أحدثها الاستشراق في الدراسات اللغوية العربية، وقبل الخوض في غمارها أود التنبيه إلى أمرين:

الأول: لن أتتبع كل تأثير للاستشراق في الدراسات اللغوية العربية، فالدراسة لا تُعنى باستقراء كل تأثير، وليس من هدفها رصد الباحثين

(١) إبراهيم السامرائي، العربية تواجه العصر، دار الجاحظ/ بغداد (ص ٢٨).

(٢) بروكلمان، فقه اللغات السامية، جامعة الملك سعود، مقدمة المحقق (ص ٥).

الذين تـأثروا بالمستشـرقين، وتتبـع آرائهـم، وإنمـا الغـرض ذكـر أبـرز التأثيرات التي تؤيد الفرضية، وتؤكد وجود التأثير.

الثاني : الدراسة غير معنية بالرد علـى آراء المتـأثرين بالمستشـرقين، ومناقشتهم، فمحاولة ذلك يُحمل الدراسة مـا لا تحتمـل، ثم إنّ الـرد لا يؤثر في نتائج البحث التي يسعى الباحث إلى الوصـول إليهـا، فالدراسـة كما ذكرتُ تُعنى برصـد التـأثير، أمـا مناقشـة تلـك الآراء فقـد دُرسـت ونوقشت في كتب المحـدثين، و قامـت رسـائل جامعيـة لمناقشـة تلـك الآراء.

واقتضى الترتيب تقسيم القضايا التي وجدت فيها تـأثير المستشـرقين جليًا إلى قسمين: قضايا منهجية، وقضايا عامة.

القسم الأول : قضايا منهجية :

تعامل اللغويون العرب الأوائل مع اللغـة وَفْـق منـهج محـدد يخـدم الهدف الذي ينشدونه من دراسة اللغة العربية، فالغرض كـان حفـظ لغـة القرآن، وتعليم هذه اللغة الفصيحة للناطقين بغيرها، وتعليمهـا للأجيـال اللاحقة. اقتضى ذلك التقعيد تحديد المكان والزمان لتمحيص من تؤخـذ منهم اللغة، وبناء القواعد على الأشهر في لغة العرب، هذا المنهج حقق لهم هدفهم المنشود، وغرضهم الذي بنوا من أجله هذه العلوم، ولا نزال نلمس ذلك النجاح، فالعربية بعد هذه القرون كلـها ظلـت صـامدة حيـة بفضل الله، ثم بفضل تلك الجهود.

ومن الخطأ المنهجي أن نحاكم الأوائل على مناهج أحدثت بعدهم، وإن كانت هي الصواب والأصلح، كيـف ودون الحكـم علـى تفضـيلها

خرط القتاد!، فالمناهج الحديثة أقل ما توصف به أنها لا تحقق الأهداف التي سعى من أجل تحقيقها اللغويون الأوائل.

انتقد كثير من اللغويين المحدثين متبعين في ذلك أساتذتهم المستشرقين المنهج الذي سار عليه اللغويون الأوائل، وتكاد تكون هذه الانتقادات الصفة المشتركة في كتبهم.

يقول أحد الباحثين: «وباستعراض آثار فترة هذه الدراسة [١٩٣٢-١٩٨٥] نجد أن جلّها يتفق على نقد منهج النحاة العرب الأقدمين»(١).

وهذه الانتقادات تباينت حسب المنهج المستعار، فأصحاب المنهج التاريخي المقارن مثلا عابوا على اللغويين إهمالهم المنهج المقارن، والنظرَ في اللغات السامية وغيرِها مما سيأتي من انتقادات، أما أصحاب المنهج الوصفي فأخذوا على النحاة عدم تسجيلهم كلَّ اللغات، ووصفها، وغيرها مما سيأتي، وقد ساد المنهج الأول الدراسات اللغوية في أوروبا فترة ثم عَقَبه المنهج الوصفي.

ومن أبرز المآخذ التي وجهت للغويين الأوائل:

جمع المادة:

اعتمد النحاة الأوائل على المصادر اللغوية: القرآن الكريم، والحديث النبوي، والشعر، وكلام العرب المنثور مع تحديد المصدرين الأخيرين بزمن ومكان محددين لضمان فصاحتهما، فالمادة المدروسة يشترط فيها الفصاحة، فهي: «ما ثبت في كلام من يوثق بفصاحته، فشمل كلام الله تعالى، وهو القرآن، و كلام نبيه ﷺ، وكلام العرب قبل بعثته،

(١) اتجاهات الدراسات اللسانية المعاصر في مصر (ص ٢٠٢).

وفي زمنه وبعده، إلى أن فسدت الألسنة بكثرة المولّدين، نظما ونثرًا عن مسلم، أو كافر»[١].

هذا أصل ثابت من أصول بناء قواعد اللغة العربية، وحقيقة مسلمة لم ينكرها أحد على مرّ العصور واختلاف الدهور. نعم، يختلف النحاة أحيانًا في فصاحة شخص بعينه، أما مبدأ التحديد ومحاولة التحقيق والفرز، واختبار الكلام الفصيح، فهو أصل ثابتٌ لا أعلم عالمًا من علماء العربية ينازع فيه.

ولكن في العصر الحديث انتقد اللغويون هذا الأصل متأثرين بمناهج لغوية غربية فرأوا في عمل النحاة الأوائل تقييدًا للغة، وخروجًا عن المنهج العلمي، ف«يقرر الوصفيون أنّ هذا الأصل من أصول النحو العربي جعله نحوًا لا يمثل العربية، وإنما يمثل جانبًا واحدًا منها، فهو لا يصور إلا هذه العربية التي حددوها مكانًا، وزمانًا، ومعنى ذلك أنه نحو ناقص لا يقدم قواعد الكلام العربي في بيئاته المختلفة، بل يذهب بعض علمائنا إلى أنّ هذا الأصل في تحديد البيئة اللغوية لا يقدم العربية الصحيحة»[٢].

أطلق أحد المعاصرين على صنيع اللغويين في تحديد الزمان والمكان دكتاتورية الزمان، والمكان[٣]!

(١) السيوطي، الاقتراح في علم أصول النحو، تحقيق: أحمد الحمصي ومحمد قاسم، جروس برس، الطبعة الأولى (ص ٣٦).

(٢) عبده الراجحي، النحو العربي والدرس الحديث بحث في المنهج، دار النهضة العربية/بيروت (ص ٥١).

(٣) إبراهيم أنيس، من أسرار اللغة، مكتبة الانجلو المصرية، الطبعة الثامنة (ص ٣١).

ويقول كمال بشر منتقداً منهج اللغويين الأوائل: «لقد تمثل هذا النهج الضيق في وقف الاستشهاد في علوم اللغة بمنتصف القرن الثاني الهجري تقريبًا، وأواخر الرابع للبدو، وكان من نتائج هذا القصر أمران مهمان، قادا في النهاية إلى صعوبات جمة في طريق تفسير حقائق العربية، وفي طمس تاريخها الطويل بعد هذا التاريخ الذي حددوه نهاية لجواز الاستشهاد»(١).

ما الحقائق الغامضة التي كان يطمح بشر أن يجد لها تفسيرًا ! ومن قبله "برجشتراسر" إذ يقول: «إذا نظرنا إلى ما وفق إليه علماء الشرق والمستشرقون، من الكشف عن اللغة العربية، وجدناه قليلًا ناقصًا، بالنسبة إلى الواجب والكامل»(٢). فلا تزال العربية في نظريهما غامضة تحتاج إلى مزيدٍ من الكشف.

ثم لنأتِ للأمرين اللذين نتجا عن منهج اللغويين من وجهة نظر "بشر". الأول «لم يحاول العرب إدراك حقيقة واضحة، هي أن العربية ليست إلا امتدادًا لنفسها عبر تاريخ قديم يرجع في قدمه إلى اللغة الأم، أو السامية الأصلية. ومن ثم لم ينظروا في هذا التاريخ ولو بطريق غير مباشر، أي بواسطة النظر في أخواتها الساميات»(٣).

لاحظ - أيها القارئ - هذا الجزم «حقيقة واضحة»، فهل تستحق فرضية الأصل السامي أن نطلق عليها هذا الوصف! مصطلح السّامية الأمّ

(١) التفكير اللغوي بين القديم والجديد، دار غريب/ القاهرة (ص٣٢١).
(٢) برجشتراسر، التطور النحوي للغة العربية، تحقيق: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي/ القاهرة (ص ٢٠٣).
(٣) التفكير اللغوي بين القديم والجديد (ص ٣٢١).

ومفهومها مصطلح لم يظهر إلا في العصر الحديث، ولم يتلقّفه الباحثون كلهم بالقبول، فهناك من الباحثين من يشكك في هذا المفهوم، ولا يزال فرضية تحتاج إلى أدلة كافية لإثباتها، ولو سلمنا جدلًا بأنه حقيقة علمية ثابتة، فهل يصح منهجيًا أن نحاكم الأوائل على مفهوم ومنهج نشأ بعدهم! وهل يحقق هذا المنهج الأهداف التي سعى من أجلها الأوائل!

ثم يمضي بشر ذاكرًا أهمية هذا النهج: «على حين أن النظر [أي: في الساميات] كان من شأنه أن يلقي بعض الضوء على كثيرٍ من مشكلات العربية التي حار علماء العربية في توضيحها وتحليلها، ولسنا نشك في أن هذه المشكلات كلها، أو بعضها كان من السهل التخلص منها بطريق استشارة اللغات، وليس لدينا الوقت لتحديد هذه المشكلات أو حصرها، فهي كثيرة معقدة تحتاج إلى بحوث خاصة»[(١)].

أهكذا أصحاب المنهج العلمي يرمون كلامًا بصرامة عجيبة دون تقديم أي دليل! فما هي المشكلات التي حار فيها النحاة، والتي لا يشك الباحث في حلّها بالاستعانة باللغات السامية؟

أما الأمر الثاني فيتمثل أن «الاستشهاد بتاريخ معين معناه إغلاق البحث في هذه اللغة بعد هذه الفترة التي حددوها نهاية لدراستهم، وقد حدث هذا بالفعل، إذ لم يقدم واحد منهم على دراسة اللغة من أي زاوية أو جانب بعد هذا التاريخ، ولم يكتفوا بهذا، بل حكموا على كل الظواهر اللغوية التي وجدت بالعربية بعد هذا التاريخ على أنها أمثلة صريحة للخطأ، والانحراف ... ولقد كان من النتائج المباشرة لهذا النهج غير العلمي أن أصبحنا اليوم عاجزين تمامًا عن إدراك ما أصاب العربية في

(١) السابق.

عصورها الطويلة، وأصبحنا مكتوفي الأيدي لا نستطيع دراسة تاريخ هذه اللغة، أو معرفة خطوط التطور الذي لحق بها، أو ظروف هذا التطور وما ارتبط به من أسباب»[(١)].

قارن بين هذا الكلام وكلام المستشرق برجشتراسر، وهو يعلل عدم اعتناء علماء اللغة الأوائل بالتطور اللغوي، ويرجع ذلك إلى سببين: «أولهما: مداومتهم على السؤال عن الجائز في اللغة وضده، وعلى المنع عن كثير من العبارات. وهذا وإن كان واجبًا، فهو عمل المعلّم لا العالم ... فالعالم يفحص ما يكون في الحقيقة، لا عما كان ينبغي أن يكون ... والسبب الثاني: اعتقاد علماء الشرق أن أكمل ما كانت عليه اللغة العربية وأتقنه وأحسنه، ما يوجد في الشعر القديم، وهذا حكم غير علمي»[(٢)].

وهنا تجد اتفاقهما على وصف عمل العلماء الأوائل بغير العلمي، واتفاقهما على نقد مبدأ التصويب، والتخطئة، وهو ما سنتحدث عنه في نقطة مستقلة. ويؤكد المستشرق يوهان فك أن صنيع اللغويين الأوائل في التحديد الزماني والمكاني للمادة المدروسة غير كافٍ لفهم التطور اللغوي، وكان عليهم أن يذكروا شواهد اللهجات الأخرى[(٣)].

وقد تطرق لهذه القضية كثيرٌ من الباحثين اللغويين العرب منتقدين ما قام به العلماء الأوائل، واصفين عملهم بخلوه من العلمية، أو لم يكن المنهج الأنسب في نظرهم كعباس حسن، وتمام حسان، ومحمود فهمي

(١) نفسه (ص ٣٢٢-٣٢٣).
(٢) التطور النحوي للغة العربية (ص ٢٠٤-٢٠٥).
(٣) انظر: مطير المالكي، موقف علم اللغة الحديث من أصول النحو العربي/مخطوط (ص ٣٨).

حجازي، ومحمد كامل حسين، ومحمد عيد، وعلي أبو المكارم، وشعبان العبيدي، ومحمد حسن عبد العزيز[١].

أما المستشرقون فإنهم اطّرحوا منهج العلماء الأوائل في دراسة العربية، ونبذوه وراء ظهورهم، فلم يلتزموا بحدود الاحتجاج التي حدها القدماء يقول عمايرة بعد عرضه لمؤلفات عدة للمستشرقين: «أمّا المادة اللغوية عند هؤلاء المستشرقين، فلم تكن في الغالب الأعم هي الشواهد اللغوية المألوفة عند النحاة العرب، إذ وسّع المستشرقون دائرة مصادرهم ... ولم يلتزموا بمفهوم لغة الاحتجاج التي ألفناها عند العرب[٢].

ومما يتصل بنقد المادة المدروسة انتقاد نوع المادة ومستوياتها، فالمادة اللغوية كما ذكرنا سابقًا: القرآن الكريم، والحديث النبوي، والشعر، وكلام العرب المنثور، وقد بُنيت القواعد النحوية على الأشهر والأكثر في القرآن، أو الحديث، أو الشعر، أو النثر.

أما المحدثون فقد عدّوا عمل النحاة الأوائل خلطًا في المستويات، فكان ينبغي دراسة كلّ مستوى على حدة، فمن المآخذ التي ذكرها أحمد مختار عمر على مصادر الدرس اللغوي العربي:«خلطُهم الشواهدَ الشعرية بالشواهد النثرية، ومحاولةُ استخلاص قواعدَ عامةٍ تجمعها مع أنه من المعروف أن للشعر قواعده، ونظمه الخاصة التي ينفرد بها»[٣].

(١) انظر: المرجع السابق (ص ٣٢) وما بعدها، وانظر: اتجاهات الدراسات اللسانية المعاصرة في مصر (ص٢٣٦)، وانظر: كتاب منصور الغفيلي، مآخذ المحدثين على النحو العربي وآثارها التنظيرية والتطبيقية، مطبوعات نادي القصيم (ص ١٠٢).

(٢) إسماعيل عمايرة، بحوث في الاستشراق واللغة، مؤسسة الرسالة/ بيروت (ص٣٢٥).

(٣) أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، عالم الكتب/ القاهرة (ص ٥٥).

ويذهب المستشرق فيشر إلى القول بأنّ بناء القواعد اللغوية والوصف النحوي والمعجمي عند العرب قام على مجموعة من المواد اللغوية لنصوص العربية القديمة الشعرية في الأغلب(١).

وسار على هذا النهج في نقد الأوائل كثير من اللغويين المحدثين، كتمام حسان، ومحمد عيد، وكمال بشر، وإبراهيم أنيس، فالشعر في نظرهم «لا يمثل البيئة اللغوية تمثيلاً دقيقًا، ومن هنا لا يجوز الاعتماد عليه في التقعيد للغة عامة»(٢).

و أنّ النحاة الأوائل قد «اكتفوا من كلام العرب بالشعر فحسب، وأهملوا النثر إهمالًا غير مُسوّغ»(٣).

ولكن ما الذي نتج عن خلط المستويات ؟

يجيب عن هذا السؤال إبراهيم أنيس، إذ يقول: إنّ الخلط بين مستوى الشعر، والنثر: «أدى ... إلى اضطراب في بعض أحكامهم»(٤).

وقد غاب عن هؤلاء مفهوم الشاهد، ووظيفته التي سيقت من أجله، فالشاهد يأتي؛ لإثبات قاعدة مختلفٍ فيها، أو ما خرج عن الأصل؛ ليحفظ، ولا يقاس عليه. أمّا القواعد المطردة، والقوانين الكلية، فالبحث عن شاهد لها يُعد عبثًا، و كلام المحدثين عن قيام القواعد اللغوية في

(١) فيشر وآخرون، دراسات في العربية، ترجمة سعيد بحيري، مكتبة الآداب/ القاهرة (ص ١٦).
(٢) محمد عبد اللطيف حماسة، لغة الشعر دراسة في الضرورة الشعرية، دار الشروق القاهرة (ص ٧).
(٣) السابق (ص ٥١).
(٤) من أسرار اللغة (ص ٢٨٨).

اللغة العربية على الشعر وحده دعوى غير صحيحة، فالقواعد بنيت على الأشهر كما بينا سابقًا.(١)

- **المنهج المعياري :**

المعيار فلسفيًا هو: «ما يتُخذ مبدًا أول وقاعدة أنموذجية تقاس الموضوعات بالنسبة إليها؛ لتصبح مبرّرةً ومعقولة؛ لأنه يمنحها دلالتها ونظامها وقيمتها»(٢).

والقاعدة الأنموذجية في اللغة العربية هي لغة الاحتجاج التي بُنيت عليها قوانين اللغة، فالصواب ما وافقها، والخطأ ما خالفها، وقد ذكرنا في النقطة السابقة كلام برجشتراسر، وكمال بشر في نقد الحكم على الظواهر اللغوية بالخطأ أو الصواب، و عدّ ذلك مخالفًا للمنهج العلمي، بل يعود سبب داء النحو العربي وصعوبته والشكوى منه إلى هذا المنهج المعياري، فما برحوا يتهمون النحاة بأنهم تحكموا في الآخرين، وتسلطوا على اللغة، وسيطروا على الكلام، فما وافق القواعد التي وضعوها هو الصواب، وما خالفها فخطأ(٣).

يقول مهدي المخزومي: «ليس من وظيفة النحوي الذي يريد أن يعالج نحوًا للغة من اللغات أن يفرض على المتكلمين قاعدة، أو يخطئ لهم أسلوبًا»(٤).

(١) انظر سليمان العايد، موقف النحاة المعاصرين من القراءات: الشيخ محمد عضيمة نموذجًا/ مخطوط (ص ٤٥).

(٢) معن زيادة وآخرون، الموسوعة الفلسفية العربية، معهد الإنماء العربي (ص ٧٦٦).

(٣) انظر: تمّام حسّان، اللغة بين المعيارية والوصفية، عالم الكتب/بيروت، الطبعة الرابعة (ص ١١)، ولغة الشعر (ص ٦٨).

(٤) مهدي المخزومي، في النحو العربي نقد وتوجيه، دار الرائد العربي/ بيروت، الطبعة الثانية (ص ١٩).

أقول: وهذا ما صنعه النحاة الأوائل، فهم لم يفرضوا القواعد على المتكلمين، بل بُنيت القواعد على كلامهم، وما خالف تلك القواعد من الكلام الفصيح أوّلوه إن استطاعوا، أو حفظوه دون القياس عليه. أمّا اتهام النحاة بأنهم صادروا كثيرًا من الأساليب اللغوية الصحيحة، فهو اتهام باطل لا يقوم على أي سند تاريخي.

«إنّ القواعد النحوية التقليدية ... عند فيشر [ومن تبعه من اللغويين] لا تنبع من مقتضيات المنهج الوصفي، بل هي معيارية، لا يهمها وصف اللغة بمقدار ما يهمها اطّراد قواعدها، وهذا يعني أن النحاة القدامى كانوا يغضون النظر عن الاستعمالات اللغوية التي تعارض قواعدهم»[(١)].

لابدّ أن نفرق بين أساليب في عصر الاحتجاج، و أخرى بعد عصر الاحتجاج، فالأولى كان منهج الأوائل واضحًا فيها كما ذكرتُ سابقًا: بناء القواعد على الأشهر منها، وما خالف فمنهجهم فيها التأويل، أو حفظها دون القياس عليها. هذا ديدن العلماء في مثل هذه الظواهر، وما خرج عن هذا النهج نعدّها ممارسات خاطئة من بعض اللغويين، ومن الخطأ المنهجي تعميمها على اللغويين كلهم، أما الأساليب بعد عصر الاحتجاج فخروجها عن القواعد العربية خطأ بالإجماع لا يخالف في ذلك من عرف هدف الأوائل من علوم العربية.

وهذا ما لا يرضاه المحدثون، فبعض المستشرقين درس الفصحى المعاصرة، واعتبر أخطاء المتكلمين تشكّلاتٍ لمرحلة جديدة، وتطوراتٍ في اللغة المعاصرة[(٢)].

(١) إسماعيل عمايرة، المستشرقون والمناهج اللغوية، دار حنين/ عمان، الطبعة الثانية (ص ٩٠).

(٢) السابق ص ٨٨

أما المناهج التي يقترح المحدثون تبنيها لدراسة اللغة العربية، فطائفة تؤيد المنهج التاريخي المقارن، وأخرى تطرح المنهج الوصفي منهجًا بديلًا لمنهج النحاة الأوائل، وسنتحدث عن المنهجين عند اللغويين العرب مع ربطها بالتأثير الاستشراقي.

المنهج التاريخي المقارن :

يُعنى المنهج التاريخي بدراسة الظواهر اللغوية في فترتين مختلفتين، أو فترات عدة؛ ليرصد تطوراتها.

أما المنهج المقارن فيُعنى بدراسة الظواهر اللغوية في لغتين من أسرة واحدة، وذلك بعد تقسيم اللغات إلى أسر.

وقد ساد المنهجان التاريخي والمقارن في القرن الثامن عشر والتاسع عشر في أوروبا، وطبقه المستشرقون على اللغة العربية، وظهر ذلك في مؤلفاتهم ومحاضراتهم، فألف المستشرق يوهان فك كتابه« العربية: دراسات في اللغة واللهجات والأساليب» ودرس فيه العربية وفق المنهج التاريخي حاول فيه رصد تطورات العربية في كل عصر.

وقد تتبع أحد الباحثين المؤلفات العربية التي أُلفت وفق هذا المنهج، وعلى غرار كتاب يوهان فك، فذكر منها: في علم اللغة التاريخي للبدراوي زهران، واللهجة المصرية الفاطمية لعطية سليمان أحمد، وعلم اللغة العربية لمحمود فهمي حجازي، والتطور اللغوي لرمضان عبد التواب، بل يجزم الباحث أن هناك مؤلفات كانت تلخيصًا لكتاب يوهان فك، وهي: مستقبل اللغة العربية المشتركة لإبراهيم أنيس، ودلالة الألفاظ العربية لمراد كامل، وملامح من تاريخ اللغة العربية لأحمد نصيف الجنابي[1].

(١) البحث اللغوي في دراسات المستشرقين الألمان (ص ٣٥).

أما في المنهج المقارن، فإنّ إسرائيل ولفنسون مدرس اللغات السامية بالجامعة المصرية وضع كتاب (تاريخ اللغات السامية)؛ ليكون «مرجعًا لطبقة المستنيرين[١] من الأدباء والعلماء والمدرسين بالمدارس الثانوية العالية في أقطار الشرق»[٢]. وقد ألَّف في هذا الاتجاه نولدكه، وبروكلمان، وبرجشتراسر، وتبعهم طلابهم من اللغويين العرب.

وعدّ المحدثون تركَ القدماء المقارنة بين اللغات والنظر فيها من أبرز الأخطاء المنهجية التي انعكست على غموض بعض القضايا اللغوية، أو أوصلتهم إلى تفسيرات غير صحيحة يقول أحمد مختار عمر: «علماء اللغة لم يكونوا يعرفون شيئًا عن اللغات السامية كالعبرية والسريانية معرفة صحيحة، فنشأ عن ذلك أنهم لم يوفقوا في بيان المعاني الدقيقة التي يؤديها كثير من الكلمات العربية في أصل وضعها، ونشأ عن ذلك أيضًا وقوعهم في أغلاط فيما يتعلق بالاشتقاق. كما أن معرفتهم المحدودة باللغات الأجنبية جعلتهم غير موفقين في رد كثير من الكلمات المعرّبة إلى أصولها الأجنبية»[٣].

وقد علّق أحد الباحثين على هذه الانتقادات التي لم يتفرد بها أحمد مختار، بل قال مثل قوله كثير من اللغويين المحدثين منهم عبد المجيد عابدين، والسيد يعقوب بكر، ورمضان عبد التواب علق بقوله: «والواقع أن هذا المأخذ أشار إليه بالإضافة إلى اللسانيين المعاصرين في مصر، المستشرقون، وبعض لسانيي الوطن العربي»[٤].

(١) لاحظ كلمة المستنيرين وما تحمله من دلالات، فالنور أتى مع هؤلاء المستشرقين، واتباعهم في الشرق هم من يستحقون هذا الوصف، أما من يخالفهم فهم ظلاميون.
(٢) تاريخ اللغات السامية، المقدمة.
(٣) البحث اللغوي عند العرب (ص ٥٦).
(٤) اتجاهات الدراسات اللسانية المعاصرة في مصر (ص ٢٤٢).

و المتأثرون بهذا المنهج وصفوا الأوائل بأوصاف لا تليق بهم، فلويس عوض يصف أبحاث القدماء بالساذجة[١]، ويصف إبراهيم السامرائي النحويين الأوائل بأنهم يهرفون يقول: «والنحويون ربما كانوا يهرفون، وذلك لأنهم لم يفطنوا إلى المقارنة في دراسة اللغة، والنحو، ففاتهم علم كثير»[٢].

إنّ أصحاب هذا المنهج يرونه ضرورة حضارية لمعرفة تاريخ الشعوب السامية، وعاداتها، وثقافاتها، وتقاليدها، وضرورة لغوية لتفسير كثير من القضايا اللغوية، وسأذكر بعض النتائج اللغوية التي توصلوا إليها من خلال تطبيقهم هذا المنهج:

يقرر العلماء أن الفعل المعتل العين أو اللام له أصل غير مستخدم، فقال أصلها قوَل، وباع أصلها بيَع، ولكن أصحاب المنهج المقارن يؤكدون استعمال هذا الأصل في مرحلة من مراحل العربية، والدليل النظر في اللغات السامية، فالحبشية لا تزال تستخدم هذا الأصل تقول: بيَن، وديَن.

كلمة (ليس) في العربية كلمة جامدة لا تتصرف عند النحويين، أما عند المحدثين، وبعد الاطلاع على الساميات يقررون أنها مركبة من (لا) و(أيس).

العربية كانت تبدأ بالساكن في مرحلة سابقة، والدليل استساغته في اللغات السامية.

(١) لويس عوض، مقدمة في فقه اللغة العربية، سينا للنشر (ص ١١٠).
(٢) إبراهيم السامرائي، فقه اللغة المقارن، دار العلم للملايين/ بيروت (ص ٧٩).

جمع التّصحيح أحدث عهداً من جمع التكسير، وهي مرحلة متقدمة من مراحل اللغة التي تتجه إلى الاطراد، فالعبرية اطرد فيها هذا الجمع وهذا دليل المرحلة اللغوية العالية التي بلغتها العبرية[١].

وأكتفى بهذه النماذج التي توضح منهج هؤلاء اللغويين، ومن أراد الاستزادة ففي كتب فقه اللغة المقارن بغيته.

وبناء على معطيات هذا المنهج ومخرجاته، وتعامله مع اللغة، انتقد أصحابه المعجم العربي، وذلك لأنه أهمل اللغات السامية والنظر فيها، ولأنه لم يطلعنا على التاريخ الاستعمالي للألفاظ، وقد ظهرت دراسات عدة تنتقد المعجم العربي، «ومساهمة المستشرقين كانت البداية النقدية لمنهج العرب في معجماتهم، ثم خلف من بعدهم نفر من العرب فكتبوا في الموضوع»[٢]. وكان من بين دعواتهم الدعوة إلى تأليف معجم تاريخي للغة العربية، وأول من دعا إليه المستشرق فيشر[٣]، وتبناه مجمع اللغة العربية القاهري، ولا تزال تتبناه جهات وجمعيات ولمّا يكتمل بعدُ.

و ذهب المحدثون حميةً لتراثهم، والذب عن القدماء من علمائنا الأوائل، يؤكدون أنّ العرب مطلعون على اللغات السامية، بل لهم مساهمات في دراستها، فالدكتور هشام الطعان ألف كتاباً في هذه القضية أسماه (مساهمة العرب في دراسة اللغات السامية)، وعدّ من ذلك على

(١) انظر رمضان عبد التواب، فصول في فقه اللغة، الخانجي/ القاهرة، الطبعة السادسة (ص٤٦ وما بعدها)، وانظر: فقه اللغة المقارن إبراهيم السامرائي.

(٢) العربية تواجه العصر (ص ١٣٢).

(٣) عبد العزيز الحميد، أعمال المستشرقين العربية في المعجم العربي، جامعة الإمام محمد بن سعود (ص ٢٠١).

سبيل المثال تعلّم زيد بن ثابت رضي الله عنه اللغة العبرانية، أو السريانية[١].

فما حقيقة اللغات السامية ؟ ومتى بدأ إطلاق هذا المصطلح؟ ومتى كانت تلك اللغة الأم مستخدمة ؟ ومتى بدأ تحولها إلى لغات؟

أسئلة عجز اللغويون عن إجابتها إجابة مؤيدة بالدليل، فكل ما قيل فيها فرضيات لم ترْقَ لتصبح حقيقة علمية. و يؤكد "رينان" صراحةً في أكثر من مناسبة أنّ الساميين، وصفة السامية من خلْق الدراسة الاستشراقية لفقه اللغة. ولمّا كان رينان هو الذي قام بهذه الدراسة، فإنّ قوله ذلك كان يقصد بوضوح أن يشير إلى الدور الرئيسي الذي اضطلع به هو نفسه في ذلك الخلق الجديد المصطنع[٢].

وعلماؤنا لم ينظروا فيما هو أشرف من اللغات السامية، مثل اللغات التي خالط أهلها غير العرب، ولغة العرب الذين في المدن مثل مكة والمدينة.

المنهج الوصفي :

المنهج الوصفي هو دراسة اللغة بذاتها، ولذاتها، ووصفها دون النظر إلى تاريخها، أو مقارنتها بغيرها، وهذا الوصف لا بد أن يكون في مرحلة زمنية واحدة، وفي بيئة محددة، فعلى الباحث اللغوي:

أولاً: «أن يتعلم علم الأصوات اللغوية العام، الذي لا يختص بلغة بعينها ... ثم يبدأ البحث والاستقراء مستعينًا بـ (مساعد البحث)

(١) هشام الطعان، مساهمة العرب في دراسة اللغات السامية (ص ٩).
(٢) الاستشراق، إدوارد سعيد (ص ٢٣٤).

ولاختياره شروط معينة. وتأتي بعد الاستقراء مرحلة التقسيم« الاصطلاحات الفنية« الشركة في الشكل شركة صرفية، والشركة في الوظيفة شركة نحوية، ثم يأتي بعد ذلك دور التقعيد، فينظر الباحث في أنواع التشابه المطردة بين المفردات التي تم استقراؤها، فيصفها بعبارة مختصرة نحو: حين يقع الاسم مسنداً إليه يكون مرفوعًا، ولا يتحول عن هذا الرفع إلا في حالات خاصة. و ليست القاعدة هنا قانونًا يفرضه الباحث على المتكلمين باللغة فمن وافقه كان محسنًا ومن خالفه كان مسيئًا...فالتقعيد هنا وصفي لا معياري»[(١)].

والنحو في نظر الدراسات الوصفية: علم يصف طرق الاستعمال اللغوي في مرحلة خاصة من مراحل تاريخ اللغة المدروسة[(٢)].

ويتميز المنهج الوصفي بمميزات عدة نستطيع إدراكها من الكلام السابق، ومما سطّره المنظّرون لهذا المنهج، منها:

الاهتمام باللغات الحية، وترك دراسة اللغات القديمة، فصُرفت الأنظار عن دراسة اللغات السنسكريتية، واللاتينية، وبعضهم يلحق بها العربية الفصيحة، وحاول بعض المستشرقين دراسة العربية المعاصرة، فقسموا الفصحى إلى قسمين: كلاسكية، ومعاصرة.

الاهتمام باللغة المنطوقة، والوصفيون ينتقدون النحو التقليدي؛ لأنه لم يفرق بين اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة، وأدى ذلك في نظرهم إلى اضطراب؛ لأن لكل لغة نظامًا.

(١) انظر: اللغة بين المعيارية والوصفية (ص ١٥٠)، وما بعدها

(٢) السابق (ص ٣٢).

مهمة الباحث الوصف، ثم الترتيب و محاولة الإجابة عن «كيف«، أما الخروج عن هذه المهمة، ومحاولة التعليل، والإجابة عن لماذا؟ فيعده الوصفيون خروجًا عن المنهج العلمي.

تحديد مكان الدراسة وزمانها، فتُدرس كلّ لهجة مستقلةً في زمن معين[١].

هذه أبرز ملامح المنهج الوصفي الذي طبقه بعض المستشرقين على اللغة العربية، وقد ذكر إسماعيل عمايرة عددًا من المستشرقين قاموا بدراسة العربية دراسةً وصفيةً منهم: كروبفتش الذي كتب: الاتجاهات الدلالية في العربية الفصحى المعاصرة، ولهانزفير بحث عن: خصائص الفصحى المعاصرة، ولكانتارينو بحث: تراكيب النثر العربي الحديث، ولستتكيفتش: العربية الفصحى، وغيرها من الدراسات[٢].

و على نهج الوصفيين سار لغويون عرب تبنوا المنهج الوصفي، ورأوا أنّه الأصلح في دراسة اللغة، وطالبوا اللغويين أن يسيروا في اتجاه المنهج الوصفي يقول إبراهيم السامرائي: «لا بد أنّ نأخذ شيئًا يصلح في درس لغتنا، وفهمها من العلم الجديد. علينا مثلًا أنّ ندرس لغتنا دراسة واقعية، فنتبع منهجًا وصفيًا»[٣]. ويقول: «إذا أردنا أن ننهج نهجًا جديدًا، فنكتب نحوًا نوجهه للدارسين في عصرنا هذا فعلينا أن نأخذ بالمنهج الوصفي»[٤].

(١) انظر: السابق (ص ٥٠-٥٥)، والنحو العربي والدرس الحديث (ص ٤٧)، وما بعدها، والمستشرقون والمناهج اللغوية (ص ٨٨).
(٢) المستشرقون والمناهج اللغوية (ص ١٣٦).
(٣) العربية تواجه العصر (ص ١٩).
(٤) إبراهيم السامرائي، النحو العربي نقد وبناء، دار البيارق/ بيروت، الطبعة الأولى (ص ٦٨).

نتج عن اتباع هذا المنهج نقدٌ لبعض القضايا اللغوية في النحو العربي، وتفكيكها، والتشكيك في علميّتها من أشهرها: قضية العامل النحوي، و القياس اللغوي، والتعليل. ولا تكاد تطلع على كتاب في العصر الحديث يتكلم عن القضايا إلا وجدت هذه القضايا ماثلةً أمامك ساقها المؤلف رافضًا أو مؤيدًا، وهي أثر من آثار المنهج الوصفي.

بقيت مسألة قبل أن نختم القضايا المنهجية، وهي مسألة ربط المنهج الوصفي بالدراسات اللغوية العربية التي قام بها الأوائل، و هذا ديدن مفكرينا للأسف كلما ظهرت نظرية أو منهج حاولوا إيجاد شرعية تراثية له، فالمنهج الوصفي بينه وبين منهج الأوائل اختلافات كثيرة في الغاية والهدف والوسيلة، وأوجه الاتفاق لا تعني التماثل، أو كما يقولون تحمل البذور الأولى، فأمر الاتفاق في بعض الوسائل أمر طبعي؛ لاتحاد المدروس (اللغة). ومن أعجب ما قرأته في هذا الجانب ما ذكره أنيس فريحة عن ابن جني، وابن مضاء يقول: «فإن هذين اللغويين يعتبران بحق مؤسسي المنهج الوصفي»[(١)].

يقول عن فيلسوف اللغة ابن جني إنه مؤسس المنهج الوصفي!

فأين ذهبت تعليلات ابن جني في الخصائص، وتحليلاته في فلسفة اللغة وحكمتها؟

قضايا عامة :

هي قضايا في اللغة العربية شارك فيها المستشرقون، أو شارك فيها اللغويون العرب المستشرقين، ففي الغالب هي إشكالات طرحها الاستشراق، وشغلت الفكر العربي.

(١) نظريات في اللغة (ص ٨٦).

أصالة الدراسات اللغوية العربية :

الدرس اللغوي العربي قام على أصول، ووفق منهج سليم حقق الغرض منه، وقد عظُم على المستشرقين أن ينسبوا هذا العمل الجليل إلى الأمة الإسلامية، وحاولوا التشكيك في أصالته العربية، والتأكيد على تأثره إما باليونان مباشرة، أو عن طريق السريان أو الهنود.

ويُعد رينان أول من شكك في أصالة الدراسات اللغوية العربية، وذهب إلى القول بالتأثير الأجنبي، تأثر النحو العربي بالنحو اليوناني عن طريق السريان، وأيده المستشرقون منهم: نولدكه، وفرانس بريتوريوس، وفرستيغ، وفيشر، وطلمون، وريفيل[(١)]، كلهم يؤكدون على تأثير النحو اليوناني على النحو العربي، وحاولوا عبثًا جمع الأدلة لإثبات ذلك. أما تأثر الدراسات اللغوية العربية بالهنود فقد قال به قلة من المستشرقين منهم هايود[(٢)].

هذا القول بدعة استشراقية، فالقول بأصالة الدراسات العربية لم تكن من الإشكالات الفكرية عند المسلمين، ولم تكن من الأسئلة التي شغلت الفكر الإسلامي، بل إنّ الشعوبيين الذين يناصبون الجنس العربي العداء لم يجرؤ أحدٌ منهم على هذا القول، فهي حقيقة تاريخية، وإرجاعها إلى دائرة الشك والفرضية عبثٌ علمي.

لن أناقش فرضياتهم، أو التكهنات التي قامت عليها فرضياتهم، فقد قام بهذا العمل بعض الباحثين، فإسماعيل عمايرة ناقش أدلتهم من قبل،

(١) إسماعيل عمايرة، المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغوية، دار حنين عمان، الطبعة الثانية (ص ٣٨)، وما بعدها.

(٢) المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغوية (ص ٤٢).

وبيّن خللها من عشرة أوجة[١]. وما أريد الوصول في هذه الدراسة هو بيان أثر المستشرقين في تلك القضية، فقد رأينا أنّ نشأتها استشراقية، وتلقفها اللغويون العرب، فظلوا يرددون ما قاله المستشرقون.

يقول إبراهيم السامرائي: «ليست مواد النحو القديم مأخوذة من النحو اليوناني على حسب ما يزعم الذين كتبوا في هذه المادة تقليداً ومحاكاةً لطائفة من المستشرقين»[٢]. يثبت هذا النص أسبقية المستشرقين، وأولويتهم في القول بعدم أصالة النحو العربي، وهو ينكر التأثر بالنحو اليوناني، ولكن يثبته بالمنطق الأرسطي يقول: «إنّ الدارس المنصف لمواد النحو في العربية... ليجد في النحو العربي شيئًا من المنطق الأرسطي الذي أولع به العرب أشد الولوع، فأفادوا منه في كثير من علومهم!»[٣].

أما لويس عوض فإنه يعترف بقوة الدراسات اللغوية العربية وإحكامها، والسبب في نظره: اطلاع العرب على ثقافات الفرس واليونان يقول: «وُفّق العربُ إلى وضع النحو العربي، والصرف العربي، والبلاغة العربية، على أسس علمية بعد ازدهار حضارتهم، واطلاعهم على تراث الأمم المجاورة لهم، ولا سيما اليونان، والفرس»[٤]. وقد ذهب إلى القول بالتأثير كثير من اللغويين العرب، بل ينقلُ بعض الباحثين شبه إجماع من المحدثين على وجود التأثير[٥].

(١) السابق (ص ٤٥).
(٢) العربية تواجه العصر (ص ٣٥).
(٣) السابق.
(٤) مقدمة في فقه اللغة العربية (ص ٩٢).
(٥) اتجاهات الدراسات اللسانية المعاصرة في مصر (ص ٢٠٢).

ومن هؤلاء: إبراهيم مدكور، وإبراهيم مصطفى، وتمام حسّان، وأنيس فريحة، وأحمد مختار عمر، وحسن عون، ومحمود السعران.

أختم هذه القضية التي تَبيّن لي فيها أثرُ الاستشراق بما ذهب إليه عبد الرحمن الحاج صالح؛ إذ يقول: «أجمع المستشرقون قبل اليوم على حصول هذا التأثير، بل ذهب بعضهم إلى أنّ مفاهيم النحو العربي الأساسية كلها مأخوذة من منطق أرسطو. ولم يأت أحد منهم بأي دليل اللهم إلا القول باستحالة إبداع العرب لكل هذه المفاهيم الدقيقة الناضجة في مدة قصيرة، وهو دليل واهٍ؛ لأن العرب أبدعوا أشياء كثيرة غير النحو في هذه المدة القصيرة»(١).

الدعوة إلى العامية، والاهتمام بها، والعزوف عن الفصحى :

نتناول هذه القضية من الجانب التاريخي فنتحدث عن بداياتها، وعلاقة المستشرقين بها، وتأثر العرب بهم، فالقضية كلها أصبحت من التاريخ، فقد تجاوزها الفكر العربي، وإني لأتعجب بحسرة وأنا اقرأ في هذه القضية على الجهود المضنية التي اُستنزف فيها العقل العربي في معركة ليست له، وفي قضية محسومة، فكل الأمم عندها نمطان في أداء اللغة، ومستويان، نمط عالٍ أدبي، وآخر تواصلي، والأمة العربية ليست بدعًا من الأمم في هذا الشأن فعندها هذان المستويان، ولكنّ الاستعمار وأداته الاستشراق ضخّم هذه القضية حتى غدت هي العقبة بين العرب والحضارة والتقدم.

(١) عبد الرحمن الحاج، تأثير النظريات العلمية اللغوية المتبادل بين الشرق والغرب: إيجابياته وسلبياته، مجلة مجمع اللغة العربية/ القاهرة (العدد ٩٦/ ١١٥).

ويجمع الباحثون الذين كتبوا في هذه القضية على ربطها بالاستشراق، ومِنْ خلفه قوى الاستعمار، فقد تولّوا كِبَر العزوف عن الفصحى، والدعوة إلى العامية تنظيرًا وتطبيقًا.

تقول نفوسة زكريا: «إذا تتبعنا تاريخ الصراع بين الفصحى و العامية في مصر لا نجد أثرًا لهذا الصراع قبل ظهور الدعوة الأجنبية التي نادت باتخاذ العامية أداة للتعبير الأدبي»(١).

وقد أيّد قول نفوسة في ربط تاريخ الدعوة إلى العامية بالاستعمار أكثرُ من باحث، منهم محمود شاكر في كتابه أباطيل وأسمار، وأحمد عبدالغفور عطار في كتابه الزحف على لغة القرآن وعبد الصبور شاهين في كتابه في علم اللغة العام، ومحمد المبارك في كتابه فقه اللغة وخصائص العربية.

وكان تأثير هذه الدعوة من جانبين:

الأول: الإبداع بالعامية: من حيث تأليف الكتب، وترجمة الأعمال الأدبية العالمية، و كتابة المسرحيات، و لغة الصحف، والإعلام.

الثاني: دراسة اللهجات العربية، ولا نستغرب من دراسة المستشرق للهجات العربية، والدعوة إليها، فغالبًا هذا المستشرق هو طالب أو متخرجٌ في المدارس الخاصة باللهجات العربية كمدرسة نابولي للدروس الشرقية في ايطاليا، وفينا في النمسا، ومدرسة باريس للغات الشرقية الحية و لاحظ تقييد الحية الذي يقصدون به اللهجات، ومدرسة لازارف في روسيا، وكذلك في ألمانيا، والمجر، وإنجلترا(٢).

(١) نفوسة زكريا، تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر، دار نشر الثقافة بالإسكندرية، الطبعة الأولى (ص ٧٥).

(٢) السابق (ص ٩)، وما بعدها.

يقول المستشرق بروكلمان: «ولم يبحث اللهجات التي تُتَكّلم اليوم في الشرق إلا العلماء الأوربيون في القرن التاسع عشر»[(١)]. وهذا صحيح، فهي من كوارث الاستشراق.

درس المستشرقون ومن اقتفى أثرهم من العرب اللهجات العربية كلها كلهجة بغداد، ودمشق، والصعيد، ومراكش، وبيرت، وصنعاء وغيرها من لهجات العالم العربي.

ولقيت هذه الدعوة تأييداً من بعض المثقفين العرب كرفاعة الطهطاوي، وسلامة موسى، و أسعد داغر، وغيرهم من المثقفين، وفي المقابل هناك مثقفون عارضوا هذه الدعوة، وبينوا عوارها وهي - كما قلت سابقًا - معركة استنزفت جهد الأمة.

ذكر بعض المؤلفات بالعامية :

أحسن النخب في معرفة لسان العرب، لمحمد عياد الطنطاوي.

الرسالة التامة في كلام العامة والمناهج في أحوال الكلام الدارج، لميخائيل الصباغ.

مميزات لغات العرب وتخريج ما يمكن من اللغة العامية عليها وفائدة علم التاريخ من ذلك. ألفه حفني ناصف تلبية لاقتراح مرتين هرتمن أستاذ اللغات الشرقية في برلين.

التحفة الوفائية في تبيين اللغة العامية المصرية، لوفاء القوني استجابة لطلب كارل فولرس.

(١) فقه اللغات السامية (ص ٣١).

وليس الغرض استعراض الكتب التي ألفت في العامية، أو حصرها، فكتاب الدكتورة نفوسة جاء على كثير منها.

و لكن لاحظ أيها القارئ أنّ الكتابين الأخيرين كانا بإيعاز مباشر من المستشرقين، وكذلك الكتابان الأولان، فصاحب الكتاب الأول مدرس العربية ولهجاتها في بطرسبرج في روسيا، والثاني يدرس في مدرسة باريس للغات الشرقية الحية، وهذا يؤيد تعريفي للاستشراق، فهي داخلة في الحد الذي وضعته للدراسات الاستشراقية، أما الذين وضعوا قيد الجنس غير العربي في التعريف فكلّ هذه الدراسات ليست من الدراسات الاستشراقية؛ لأنّ كتّابها عرب!

أكتفى بهاتين القضيتين اللتين رأينا دور الاستشراق فيهما، ورأينا فيها تبعية اللغويين العرب لأقوال المستشرقين، وهناك قضايا أخرى لكنّها لم تكن بأهمية هاتين القضيتين في التأثير كقضية الإعراب التي تولى كبرها فولرز، وكوهين، وتابعهما من اللغويين العرب إبراهيم أنيس، وإبراهيم مصطفى، وإبراهيم السامرائي.

ومثلها قضية القول بالأصل الثنائي التي دافع عنها الدومنكي متأثرًا بالمستشرقين، لكنّ هاتين القضيتين تأثيرهما محدودٌ. أضف إليها القضايا الأدبية التي تحتاج إلى دراسة مماثلة تكشف عن تأثير الاستشراق في الدراسات الأدبية.

علاقة الاستشراق بالسياسة :

الحديث عن علاقة الاستشراق بالسياسة مبنيٌ على الحركة والظاهرة الاستشراقية، وليس عن المستشرقين. فالمستشرقون عددهم كثيرٌ، وليسوا سواءً، فمنهم الباحث المنصف، والباحث الجاد الذي يسعى

للوصول إلى الحقيقة، لذلك نجد منهم من يدافع عن الإسلام والمسلمين، ومنهم من أسلم[١]، ومنهم غير ذلك الحاقد المتعصب، وكثيرٌ منهم يوظّف من غير علمه بأبعاد عمله، فالأساطير التي نُسجت عن الشرق هي زاده المعرفي، وهي الحقائق التي لا تقبل النقاش عنده، فالحديث سيكون متوجهًا إلى المؤسسة الاستشراقية.

ارتبطت الحركة الاستشراقية بالسياسية الاستعمارية، وكونتا جبهةً واحدةً؛ للاستيلاء على الشرق، و بات الاستشراق وجه الاستعمار الثقافي، والمؤيد له علميًا، وظلت السياسة الاستعمارية الداعم القوي للاستشراق، والمذلل له الصعاب، وقد صَنّفتُ الأدلة التي تؤكد علاقة الاستشراق بالسياسة، وقسمتها إلى أقسام، وختمت بأقوال الباحثين التي تواترت في ربط الاستشراق بالسياسة استئناسا بها، وهي:

١- اعترافات المستشرقين، وبعض الباحثين الغربيين:

يعترف هاملتون جيب مؤلف كتاب «المجتمع الإسلامي والغرب« مع بون أن الدراسات الاستشراقية من بداية القرن التاسع عشر إلى وقت قريب من تأليف كتابه في القرن العشرين عديمة الجدوى، و ذكر سبب ذلك من وجوه عدة من بينها أنها تمثل وجهات النظر الرسمية[٢]، فهي مبنية على ما تريده المؤسسة الرسمية لا ما يتطلبه البحث العلمي.

وينقل عبد المتعال الجبوري اعتراف ريتشارد بعلاقة الدراسات الاستشراقية بالسياسة الأمريكية، وذلك في دراسة الأخير «التي نال بها

(١) ذكر صاحب كتاب (الاستشراق والدراسات الإسلامية لدى الغربيين) قائمةً تضم مئة واثنين وتسعين مستشرقًا أعلنوا إسلامهم (ص ٢٦٢).

(٢) انظر: فلسفة الاستشراق (ص ٢٠٢).

الدكتوراه عن الإخوان المسلمين، والتيار السلفي عند رشيد رضا أنّ هذا الاهتمام بالتاريخ العربي والإسلامي جزء من السياسة الأمريكية العليا، وقد بدأت الحكومة الفيدرالية تهتم بذلك منذ الخمسينيات»[١]، ثم يقول: «وظهر بأمريكا برنامج التعليم من أجل الدفاع القومي، أي تعلم لغات وأحوال الدول الأسيوإفريقية للانتفاع بها في خدمة السياسة الأمريكية، وربما كان الاستشراق ستارًا للتجسس»[٢].

وفي هذا دلالة على أنّ الاستشراق لا يزال مرتبطًا بالسياسة، وخطأِ من يظن أنّ هذه العلاقة تلاشت بعد زوال الاستعمار.

٢- العلاقة العضوية بين الاستشراق والسياسة :

وذلك أنّ يكون المستشرق مشاركًا في الأجهزة السياسية وموظفًا فيها، فلويس عوض -وهو من الاتباع المخلصين - كان ينتقد الأساتذة المستشرقين الإنجليز الذين يعملون في المخابرات[٣].

إنّ هؤلاء المستشرقين ينفذون خطة محكمة للتغلغل في الشرق تحت شعار العلم، ودثار المعرفة، وانظر إلى وصف محمود شاكر لكريستوفر سكيف الذي يعمل أستاذًا، ويقوم بأعمال جاسوسية، وذلك في قوله: «كان أستاذًا في كلية الآداب بجامعة القاهرة ... وجاسوسًا محترفًا في وزارة الاستعمار البريطانية، وأنه كان مبشرًا ثقافيًا شديد الصفاقة سيء

(١) عبد المتعال الجبوري، الاستشراق وجه الاستعمار الفكري، مكتبة وهبة/ القاهرة، الطبعة الأولى (ص ١٢٣).
(٢) السابق.
(٣) انظر: نسيم مجلّي، لويس عوض ومعاركه الأدبية، المجلس الأعلى للثقافة (ص ٦٩).

الأدب، وأنه كان ماكرًا خبيثًا خسيس الطباع، وأنّه كان يفرّق بين طلبة القسم الإنجليزي في الجامعة: يمد يدًا إلى هذا، لأنه تابعٌ له حاطبٌ في هواه، وينفض يده من ذاك؛ لأنه يعتصم ببعض ما يعتصم به المخلصون لدينهم ووطنهم، حميةً وأنفةً، واستنكافًا أن يضع في عنقه غُلًّا للسيادة البريطانية، وللثقافة التبشيرية»[(١)].

يطلعنا هذا النص حقيقةً على تغلل المستشرق في المؤسسات التعليمية العربية من جهة، وتورطه مع المخابرات من جهة أخرى، وعلى قوة تمكنه وتسلطه على الطلاب، وهي شهادةُ مَنْ عاصَرَ تلك الفترة. وأشار إلى هذا الدور الذي يقوم به المستشرق دي بلو فرانسو، وذكر نماذج على ذلك، منها: «دور المستشرق الهولندي سنوك مرغرونيه في السياسة الاستعمارية الهولندية في إندونيسيا، ودور ماسنيون في خدمة الحكومات الفرنسية المتعاقبة كضابط في الجيش والمخابرات، وهناك اليوم عاملون كثيرون في مضمار ما يسمى بدراسات الشرق الأوسط وضعوا أنفسهم في خدمة الصهيونية بفلسطين المحتلة؛ مثل المستشرق المعروف برنارد لويس، الذي تخرج على يديه عشرات الطلاب العرب واليهود»[(٢)].

فلويس عوض وهو من أشد المثقفين العرب حماسًا للمستشرقين والثقافات الأجنبية، ومحمود شاكر وهو ممن قاوم المستشرقين، واتباعهم من العرب بكتاباته، ودي بلو وهو باحث غربي، كلهم على

(١) محمود شاكر، أباطيل وأسمار، الخانجي/ بالقاهرة، الطبعة الثالثة (ص ٨).

(٢) نقلا عن صلاح الجابري في كتابه: (الاستشراق قراءة نقدية)، دار الأوائل/ الرباط (ص ١٠٠).

اختلاف ثقافاتهم، وتوجهاتهم أكدوا الارتباط الوثيق بين المستشرقين، وصناع القرار بما لا يدع مجالاً للشك. كما يؤكد روبن ونكس «حقيقة الارتباط الوظيفي، أو المعلوماتي بين أطراف البحث والدراسة، وبين صناع القرار»[(١)].

وإليك ذكر بعض أسماء المستشرقين الساسة[(٢)]:

"**هانوتو**" الذي دارت بينه وبين محمد عبده معركة فكرية حول الإسلام، وهو مستشار لوزارة المستعمرات الفرنسية.

"**سوفير**" قنصل فرنسا في دمشق.

"**لويس ماسنيون**" أحد الضباط الذين شاركوا في الحرب العالمية الأولى، ثم عُين مستشارًا لوزارة المستعمرات الفرنسية، ثم أمينًا للمجمع العلمي المصري، وله مجلة للدراسات الإسلامية تَتَتَبّع أخبار الفرق الإسلامية، والدوريات، والمجلات.

"**هنري جيب**" عضو المجمع اللغوي المصري، وكان يعمل مستشارًا في وزارة الخارجية البريطانية.

"**برلاند لويس**" مستشرق إنجليزي يعمل في السياسة الأمريكية، وهو متخصص في الشئون العربية، والإسلامية[(٣)].

(١) انظر: الاستشراق في الفكر العربي (ص ٢٧).

(٢) ومن أراد الاطلاع على نماذج أخرى؛ فليرجع لموسوعة المستشرقين لعبد الرحمن بدوي، أو: كتاب (المستشرقون) لنجيب العقيقي، أو: كتاب (الاستشراق وجه الاستعمار الفكري) لعبد المتعال الصعيدي.

(٣) انظر: كتاب الاستشراق وجه الاستعمار الفكري،

٣- الهيكل التنظيمي الإداري لمؤسسات الاستشراق :

من الأدلة القوية على علاقة الاستشراق بالسياسة الهيكل التنظيمي لبعض مؤسسات الاستشراق، ومدارسه، فهي تابعة لوزارات الخارجية للدول الغربية، كمدرسة المترجمين في النمسا فهي مرتبطة بوزارة الخارجية، ومدرسة اللغات الشرقية في ألمانيا كذلك التي تتبع وزارة الخارجية، ومثلها مدرسة اللغات الشرقية في باريس(١).

٤- الداعم المادي للاستشراق :

الدعم لا أعني به تقديم المساعدات المالية وحسب، بل يشمل مع هذا الغطاء الرسمي والحماية الأمنية، وإليك اعتراف أحد المستشرقين بالدعم المالي، والمعنوي يقول:« نعترف شاكرين بأن المجتمع ممثلًا في الحكومات، والمجالس النيابية يضع تحت تصرفنا الإمكانيات اللازمة لإجراء بحوث الاستشراق، وللحفاظ على نشاطنا التعليمي في هذا المضمار»(٢).

ومقابل هذا الدعم تتدخل السياسة في الإطار الاستشراقي، وهو ما ينبغي التركيز عليه، ودراسته، وبحثه، «فكانت محاولة توحيد الهدف والرؤية للاستشراق تتم في كثير من الأحايين من خلال دوافع سياسية، حين تتزاحم المشاكل المتصلة بالشرق أمام صناع القرار الغربي، فتستعين بعلماء الاستشراق لكي يكثفوا جهودهم لإضاءة منطقة معينة»(٣).

(١) انظر: بحوث في الاستشراق واللغة (ص ٣٠١).

(٢) ردوي بارت، الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، ترجمة مصطفى ماهر، المركز القومي للترجمة (ص ١٨).

(٣) أحمد درويش، الاستشراق الفرنسي والأدب العربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب (ص ٢٠).

ويقول أوليريش هارمان عن ضغوط الداعمين على المستشرقين: «وطبعًا هناك أيضًا الضغط المُلحّ من قبل أولئك الذين يقدمون الأموال لدعم النتائج التي تؤدي إلى احتواء العالم العربي الإسلامي والتشبث به، باعتباره منطقة اضطراب، حيث تكمن اهتمامات الغرب ومصالحه»[(١)].

فالعملية إذًا تكاملية، ولا فرق بين المستشرق والسياسي، فكلاهما يؤدي دوره خدمةً للاستعمار، بل يصل الأمر إلى التدخل في التعيينات الخاصة بالمؤسسات الاستشراقية.

يقول بيرنارد لويس، وهو يؤكد علاقة المؤسسات الاستشراقية بأصحاب النفوذ، و يصف واقع هذه المؤسسات: «وهؤلاء المتاجرون بالأفكار يخوض بعضهم ضد بعض حروبًا طاحنةً لا علاقة بتكتيكاتها، وأهدافها بحقيقة الواقع في الشرق الأوسط، ولا بمادة الدراسات المتعلقة بالشرق الأوسط. فهذه الصراعات تخضع أحيانًا للولاءات، والمصالح السياسية، ويمكنها أن تشوه جديًا حياة الكليات الجامعية، وتطويرها. وقد وصل الأمر ببعض الإدارات الحساسة حيال الربح والمصالح المنفعية إلى حد التأكيد على ضرورة تعيين الأساتذة الجامعيين طبقًا للاعتبارات الإيديولوجية. بل لقد رأيت بأم عيني أوامر إدارية صادرة عن الهيئات العليا في الجامعات الأمريكية، أو معايير مفروضة من فوق على لجان التعليم الجامعي، وفيها يطلبون من المرشحين للمناصب المتعلقة بدراسات الشرق الأوسط أن يكونوا متعاطفين، ومتفهمين، ومؤيدين (لوجهة نظر) الناس المدروسين، أو لأيديولوجيتهم. وبحسب المعايير

(١) انظر: محمود زقزوق، الاسشتراق والخلفية الفكرية للصراع، دار المعارف (ص ٥٨).

نفسها ينبغي على كراسي الدراسات الروسية والصينية أن تُحتل من قبل الماركسيين من مختلف الاتجاهات. وكذلك الأمر فيما يخص كرسي الدراسات الإيطالية التي ينبغي أن تتعاقب عليها سلسلة من المحاضرين والأساتذة الذين يعكسون كل تلوينات، واتجاهات السياسة الإيطالية»[(١)].

بعد هذه الأدلة التي قدمتها: أعتقد يقينًا أنّ للاستشراق علاقةً وثيقةً بالسياسة، وأنه الوجه العلمي لها، وقد وصل إلى هذه النتيجة باحثون ومثقفون قبلي سأورد أقوالهم استئناسًا بها دون تعليق:

يقول إدوارد سعيد: «تصوير الغرب للشرق كان مبنيًا على مصالح السيطرة الإمبراطورية، وكان من امتياز السلطة»[(٢)].

ويقول كذلك: «إنّ الترابط بين السياسات الإمبريالية والثقافة مباشر إلى درجة مدهشة»[(٣)].

ويقول: «إنّ الاستشراق نفسه كان من ثمار بعض القوى السياسية ... وحجتي تقول: إنّ الاستشراق في جوهره مذهبٌ سياسي فُرض فرضًا على الشرق لأن الشرق كان أضعف من الغرب»[(٤)].

ويقول محمد حسن زماني:« إنّ هؤلاء المستشرقين هم جنود ثقافة الحكومات الغربية، ومخططو الغزو العسكري والسياسي والعقائدي

(١) بحث لبيرنارد لويس بعنوان: حالة الدراسات المتعلقة بالشرق الأوسط، كتاب الاسشتراق بين دعاته ومعارضيه، مجموعة من المؤلفين، دار الساقي (ص ١٤٤).

(٢) إدوارد سعيد، السلطة والسياسة والثقافة، ترجمة: نائلة حجازي، دار الآداب بيروت، الطبعة الأولى (ص ٢٦٢).

(٣) إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، ترجمة: كمال أبو ديب، دار الآداب/ بيروت، الطبعة الثالثة (ص ٧٩).

(٤) الاستشراق (ص ٣١٩-٣٢١).

والاقتصادي الذين تخندقوا في الخطوط الأمامية لخوض هذه المعركة الكبرى بين الغرب والشرق»[١].

ويقول أحمد السايح: «الاستشراق منذ نشأته وضع نفسه في خدمة الأهداف المشبوهة، التي تعمل لإذابة المسلمين، وانسلاخهم عن شخصيتهم الإسلامية، وما فتئت مدارس الاستشراق تعد التقارير والدراسات لكل ما هو إسلامي، ويتصل بالمسلمين، تضع ذلك أمام المعاهد الصليبية، والصهيونية؛ ليكون القرار السياسي الذي يُتخذ حيال القضايا الإسلامية قائمًا على ما جاء بها»[٢].

ويقول زكاري لوكمان: «تتجلى الرابطة بين المعرفة الاستشراقية، وصناعة السياسة الاستعمارية بوضوح في تحقيق أجرته مجلة فرنسية رائدة، هي مجلة (مسائل دبلوماسية واستعمارية) ... في عام ١٩٠١ عن السياسة الاستعمارية والخرجية»[٣].

ويقول محمد حسين هيكل عن شباب من الغرب يأتون للسّؤال عن الحضارة: أهي إسلامية أم عربية؟: «أشعر بأنني في حِلّ من القول بأن هذه الطليعة الغربية متجهةً إلى مثل هذا ربما شابتها غايات سياسية تسوّغ الاعتقاد بأنّ المسألة لم تُثَر للبحث العلمي وحده»[٤].

أمّا مالك بن نبي، فيذهب إلى أبعد من ذلك، فيرى تورط بعض المثقفين العرب بالعمل مع الاستعمار، يقول: إنّ بعض «المشارقة

(١) الاستشراق والدراسات الإسلامية لدى الغربيين (ص ١٨).
(٢) أحمد السايح، الاستشراق ميزان في نقد الفكر الإسلامي، الدار المصرية اللبنانية (ص ٥).
(٣) زكاري لوكمان، تاريخ الاستشراق وسياساته، ترجمة: شريف يونس، دار الشروق، الطبعة الثانية (ص ١٦٢).
(٤) محمد حسين هيكل، ثورة الأدب، دار المعارف (ص ١٣-١٤).

المتتلمذين للمستشرقين يخفون عملهم التخريبي ضد الإسلام، بإيعاز واضح من أوساط استعمارية، تحت رداء تقدمية جوفاء تحاول سلب الإسلام من كل قيمة حضارية، بل تنسب له حالة التخلف الراهنة في العالم الإسلامي»[(١)].

وبعد ذكر تلك الأدلة وأقوال هؤلاء الباحثين يُعد الحديث عن موضوعية المستشرقين ضربًا من السطحية الفكرية، والسذاجة في التعامل مع المُنْتج الاستشراقي، ومن أهم ما يقدح في موضوعية المستشرقين الصورة المسبقة. فالاستشراق قد جاء بصورة مسبقة عن الشرق يريد إثباتها إن أمكن، وخلق ما يؤكدها، يقول جيرار لكلراك: «وقد كانت آراؤهم في الغالب مثقلة بالأخطاء، والأحكام المسبقة... فهم ينفرون ممن يحاول الوصول إلى آراء موضوعية وعلمية تتعلق بالأشياء»[(٢)].

وهو قدحٌ في الأمانة العلمية، وشرخ في الأصول التي تقوم عليها الدراسات الاستشراقية يقول أحد المستشرقين، وهو يعترف بهذه النظرة المسبقة: «إنّ النظرة المسبقة، أو الحكم المسبق موجودان على الدوام، ولا يمكن التخلّص منهما؛ إذ إنّ المستشرق أو الباحث ينتمي إلى حضارة أخرى غير الحضارة التي يدرسها... فالنظرة المسبقة موجودة شئنا أم أبينا... موجودة بشكل جبري ولا نستطيع التخلص منها، بل هي السمة المميزة للدراسات الاستشراقية عن الدراسات التي يقوم بها أبناء البلدان الشرقية الإسلامية لحضارتهم وثقافتهم»[(٣)].

(١) إنتاج المستشرقين (ص ٢٣).

(٢) جيرار لكلراك، الأنتروبولوجيا والاستعمار، ترجمة: جورج كتورة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية (ص ٦٢).

(٣) رودنسون، نقلاً عن: الاستشراق قراءة نقدية (ص ١٧).

هـذه الإشـكالية جعلتـهم يقعـون في أخطـاء منهجيـة عـدة، منـها: الانتقاء، فالتراث الإسلامي تراث ضـخم ممتـد لقـرون عـدة دخـل فيـه الكذب الصَّرَاح، ودخل فيه الشاذ المنكر، ودخلت فيه أهواءُ فِرَق تَكيـد للإسلام وتتربص به، فهؤلاء يتبعـون القـول المنكـر الشـاذ لأنـه يحقـق الصورة المسبقة، ويؤكدها.

ومن الأخطاء المنهجية كذلك: التعامل مع التراث الإسلامي والفكـر العربي بمنهج الغرب، فالمستشرق ولو كان باحثًا عـن الحقيقـة في نظـره فهو بعيد عن الموضوعية؛ لأنه يطبق منـهجًا مختلفًـا تمامًـا عـن المنـهج الإسلامي، وقد رأينا كيف زلت بهم القدم هم وأتباعهم مـن العـرب في نقد منهج اللغويين العرب، والإشكالات المنهجية في مناهجهم المقترحة كالوصفية، والتاريخية، والمقارن، فأقل ما توصف به أنها بعيدة كل البعد عن غاية الدراسات الإسلامية وأهدافها.

ولا يعـني هـذا الكـلام أنّ المنـهج الوصـفي، ومِـنْ قَبْلـه المقـارنُ والتـاريخي منـاهج لغويـة نشـأت لتحقـق أغراضًـا سياسـيةً، فالباحـث لا يستطيع الجزم بذلك، فنشأة المناهج اللغوية وعلاقتها بالسياسة تحتاج إلى بحـث مسـتقل يتتبـع فيـه الباحـث بيئـة هـذه المنـاهج وخلفياتهـا الإيديولوجية.

يقول رمضان عبـدالتواب: «وعلـى الـرغم مـن النشـأة الاسـتعمارية للاستشـراق، ومـا يكنـه المستشـرقون للإسـلام مـن العـداء والحقـد والكراهية، فإنهم من غير قصـد قـد قـدموا بعـض الخـدمات للعربيـة، وآدابها ... غير أنهـم أو جمهـرة كـبيرة منـهم عنـدما يتنـاولون الإسـلام بالدراسة والبحث ينسون المنهج العلمي الصارم، الذي يتبعونه عـادة في

دراساتهم، وبحوثهم فيما عدا ذلك، ونرى الأحقاد، والكراهية للإسلام وأهله توجه في العادة هذه البحوث والدراسات»[١].

أهداف الاستشراق :

رأينا فيما سبق اهتمام الغرب بالشرق، والدعم السخي للدراسات الاستشراقية، والعدد الهائل من المؤلفات والأبحاث، والتحقيقات التي قام بها المستشرقون، ومن السطحية الفكرية أنّ نظنّ سيرها هكذا دون هدف تسعى لتحقيقه، فالغرب لم يدرس الشرق إلا ليحقق أهدافًا رسمها، وغايات يدركها، وقد أشار المستشرق الأمريكي بيترغران إلى وجود التنسيق بين المدارس الاستشراقية في كل قطر غربي، وتحديد الأهداف[٢].

ومن يخرج عن الخطة الاستشراقية، وأهدافها يكون مصيره كمصير (رايكسه) الذي حورب، واتهم بالزندقة؛ لأنه خرج عن الأهداف الاستشراقية.

وفي هذا المبحث سأتحدث عن أهم أهداف الاستشراق من دراسة العربية وآدابها، وكيف استخدم المستشرق القضايا اللغوية في تحقيق أهدافه:

١- تبرير الاستعمار، والسيطرة على الشرق :

سعى الاستشراق إلى جعل الاستعمار واجبًا إنسانيًا، وضرورة حضارية للبشرية كلها، وسلك في الوصول إلى ذلك طرقًا عدة منها:

(١) العربية الفصحى والقرآن الكريم أمام العلمانية والاستشراق (ص ١٠).

(٢) انظر: إسماعيل عمايرة ،المستشرقون وتاريخ صلتهم بالعربية، دار حنين، الطبعة الثانية (ص ٥٢).

التأكيد على بدائية الشرق، وهمجيّته، وأنه يمثل مرحلة متأخرة في التطور الإنساني، فـ «الدراسات التي يقوم بها عدد كبير من الباحثين الأجانب في العالم الثالث هدفها: البحث عن طفولة البشرية في هذه المجتمعات، والتوقف طويلًا عند الخاص والاستثنائي فيها؛ لأن أبحاثًا من هذا النوع تلبي نزعة ظاهرة أو دفينة في النظرة والعلاقة بين نمطين من المجتمعات، كما تبرر السلوك الاستعماري، والاستغلال الذي مارسه الغرب في علاقته ببلدان العالم الثالث، أي: إثبات تفوقه وهيمنته من ناحية، والتأكيد على أنّ هناك فروقًا بين الأعراق، و الأجناس أكثر مما هو الفرق في التطور الاجتماعي، والموارد وطبيعة الأنظمة السياسية»(١).

وهذا ما سعى إلى إثباته المستشرقون «فإنّ الأقاليم الخارجية من العالم لا تملك حياة أو تاريخًا أو ثقافةً تستحق الذكر، وليس لها استقلال أو اكتمالية جديران بالتمثيل من دون الغرب»(٢).

وإليك بعض أقوال المستشرقين عن التخلف الشرقي:

"**جان باتيست**" سكرتير معهد الاستشراق أيام نابليون: إنّ نابليون باحتلاله لمصر قد أدى خدمة لسكان مصر تجعلهم يحيون حياة أكثر ملاءمة وطبيعة، هذا بالإضافة إلى أنه يضع بين أيديهم كل مزايا الحضارة المتقدمة.

"**ألفونس دي لامارتين**" مستشرق فرنسي: بلاد المشرق عبارة عن صنف من الشعوب التي لا أرض لها ولا وطن، ولا حقوق ولا قوانين

(١) عبد الرحمن منيف، بين الثقافة والسياسة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الرابعة (ص ١٢٥).

(٢) انظر: الثقافة والإمبريالية (ص ٦٤).

ولا أمن ... وهي تنتظر بفارغ الصبر الملجأ والملاذ، واحتلال أراضيها من قبل الأوروبيين.

"**جو بينو**": ألف كتابًا يثبت فيه تخلف الجنس الشرقي بعنوان: رسالة حول عدم ندية الأجناس البشرية.

"**مارك جرادين**" مستشرق فرنسي: لقد كان على فرنسا القيام بأعباء كثيرة في الشرق ... إنّ بلدان المشرق تضع كل مسئوليات مستقبلها في يد فرنسا عن طيب خاطر... ذلك أن فرنسا ما زالت حتى الآن تتابع قضية الشعوب المحرومة.

"**ماركس**": لا يمكن للشرقيين أن يمثلوا أنفسهم، ولابد من شخص آخر يمثلهم[(١)].

أكتفي بهذه النماذج، وإلّا فالأدلة على هذه القضية كثيرة، «فالبرنامج الفكري المتكامل المكرّس لإثبات انحلال الشرقي(أي السامي) كان فعّالًا في إضفاء الشرعية على احتلال الشرق بأكمله»[(٢)].

وبهذا التفسير وكشف الهدف الاستشراقي نستطيع فهم استبعاد المستشرقين أصالة الدراسات العربية؛ إذ يُعد اعترافهم بأصالة الدراسات اللغوية العربية، وقد بلغت من الكمال والإتقان ما أبهر المتعصب منهم قبل المنصف يُعد ذلك طعنًا في نتائج أبحاثهم التي تؤكد تخلف الجنس الشرقي، فالجمع بين القول بأصالة الدراسات اللغوية العربية، وأنّ العرب هم أصحاب نشأتها، وتطويرها، والقول بهمجية العرب،

(١) انظر: الاستشراق والدراسات الإسلامية لدى الغربيين (ص ٢١٤)، وما بعدها

(٢) السلطة والسياسة والثقافة (ص ٥٢).

وبدائيتهم تناقض صريح لا يقبله عاقل، فالحل إذًا التشكيك في أصالة الدراسات العربية، والبحث الدائم، والمستمر عن عنصر خارجي اتبعه العرب، وقاموا باستنساخ تجربته.

فالمسألة تؤخذ في هذا السياق، وأي إخراج لها عن هذا السياق سيخفي جزء الصورة الأهم، ولا يعني ذلك ألا نناقش الأدلة التي قال بها هؤلاء المستشرقون، ومن اتبعهم، بل الواجب مناقشتها، وتفنيدها، ولكن يجب ألا نغفل عن سياق القضية، والخلفية الفكرية للقضية.

يقابل التخلف الشرقي- في نظر المستشرقين- تفوق الجنس الأوروبي، وقد رأينا في النصوص السابقة تعظيمهم للشأن الأوروبي، وأنّه المستحق فطريًا لقيادة العالم، وسيادة الشرق والاستيلاء عليه فالتاريخ الحضاري، والفلسفي، والثقافي أوروبي، أما دور الأمم الأخرى فكانت ناقلة فحسب.

وللأسف وجدنا صدى كل هذه الأقوال عند المثقفين العرب كطه حسين، وإبراهيم السامرائي، ورمضان عبد التواب كما مر معنا في هذا البحث، وانظر إلى وصف أحد المثقفين العرب لأحد المستشرقين:« حضرة مولانا صاحب الشرف الباذخ، والمجد الراسخ، عمدة المدققين المتكلم في اللغات العربية والعجمية على اختلافها وائتلافها أحد علماء فرنسا المكرم، وقاضي قضاتها المعظم مولانا الأستاذ العلامة دي ساسي!»[(١)].

ومما يتصل بتخلف الشرق تخلف لغتهم،فهي تمثل مرحلة بدائية من مراحل تطور اللغات تتسم بالبساطة، والسذاجة، فهي خالية من ألفاظ

(١) انظر: تاريخ الدعوة إلى العامية (ص ١٦).

الحضارة والفكر، وما فيها من تلك الألفاظ الحضارية راجع لاقتراضها من لغات أخرى، وقاموا بدراسة الألفاظ العربية، وجَهَدوا في ربطها عنوةً بلغات أخرى مستخدمين المنهجين التاريخي، والمقارن.

وممّا يدل على بدائية العربية وعدم منطقيتها تأنيث الكلمات بلفظ مغاير، وكذلك اختلاف العدد والمعدود في التذكير والتأنيث يقول أنيس فريحة: «إنّ بقايا هذا التقعيد وبقايا عدم المنطق لا تزال ظاهرة في لغتنا الحية: خذ التأنيث مثلًا، فإنّ الإنسان القديم كان يؤنث المفردات بلفظ مغاير للفظ المذكر، ففي العربية نقول: رجل - امرأة، خروف - نعجة ... ولكن بعد زمن بدأ التأنيث الصرفي يجد مدخلاً إلى اللغة وأصبحنا نقول: لطيف - لطيفة ... وإليك مثلا آخر على انعدام المنطق في اللغة: تذكير العدد مع المؤنث، وتأنيثه مع المذكر»[(١)].

وكذلك العربية فقيرة في الدلالة على الزمن، وهي مرحلة بدائية تجاوزتها كثير من اللغات.

٢- قطع صلة المسلمين بالماضي، وقطع المسلمين بعضهم عن بعض في الحاضر:

من أهداف الاستشراق التي سعى لتحقيقها قطيعة المسلمين أفقيًا وعموديًا، قطيعتهم بالماضي، قطيعتهم بهذا التراث الضخم، وذلك عن طريق إظهار الماضي في صورة متخلفة، ومن العار الانتساب إليه، بل من الواجب الحضاري التبرؤ منه ونقده، وهذا ظاهر في كتابات المستشرقين وأتباعهم كمن يريد إلحاق مصر بأوروبا، ومن يريد العودة إلى الحضارة الفرعونية.

(١) نظريات في اللغة (ص ٢٣).

وتجد هذا الهدف حاضرًا وجليًا عند من ينادي إلى اتخاذ العامية لغة علم وتأليف، فالنتيجة الحتمية لهذه الدعوة، والثمرةُ التي يسعى لقطفها الاستعمار هي قطع الأمة عن تراثها فيصبح هذا الكم الهائل من العلم غريبًا لا تجد من يستطيع فك رموزه، والانتفاع بما فيه.

يقول محمد حسين هيكل: «ويكفي أن أذكر ما كان من سعي متصل لجعل اللغة الدارجة لغة الكتابة، وما كان من محاولة قطع كل نسب بين الحاضر والماضي، ومن إظهار هذا الماضي في صورة رزية غير جديرة بالاعتداد بها، أو استلهامها»(١).

إنّ الدعوة إلى اللهجات، ودراستها، والتأليف بها يحقق للاستعمار إلى جانب القطيعة مع التراث ومع ماضي المسلمين يحقق قطيعة بين المسلمين، فكل قطر يتخذ لهجته للتأليف والتدريس والتعليم فيقع الانفصال الثقافي بين الأمة الواحدة. إنّ اللغة من أقوى عناصر الهُوِيّة، ومن أوثق عناصر الوحدة في الأمة، فَهِمَ ذلك أعداء الأمة فخططوا لهدم هذه القوة؛ وحاولوا الوصول إلى غاياتهم بكل ما أتوا من قوة، فدعموا الدراسات اللهجية، واللغات الأخرى في المنطقة العربية، واستمع لتصريح خطير لمستشرق عاش في أوساط الأمة الإسلامية، و احتضنته أشهر المؤسسات الثقافية إنّه هاملتون جيب يقول: «اتحاد المسلمين بمثابة اللعنة على العالم»(٢).

هذا قول من كان يدعو دائما إلى دراسة اللهجات، فالدعوة إلى دراسة اللهجات واتخاذها دعوة استشراقية استعمارية، ودعك ممن

(١) ثورة الأدب (ص ١٥).

(٢) انظر: الاستشراق والدراسات الإسلامية لدى الغربيين (ص ١٢٥).

يبحث في التراث الإسلامي ليجد ما يثبت على أنّ العلماء قد بحثوا اللهجات، وأنّ العرب يعرفون هذا الفرع من الدراسة، ويأتي بأقوال ابن خلدون ومؤلفات العلماء في لحن العامة دع عنك هذا كله فابن خلدون وعلماؤنا كانوا أنضج فكرًا من هؤلاء المستشرقين وأتباعهم.

وقد شجع الاستعمار على تنوع الدراسات اللهجية، ودعم بعض اللغات كالبربرية في الجزائر، فقد شجعوا البربرية، وأضعفوا العربية. يقول زكاري لوكمان: «اتساقًا مع الاستراتيجية الاستعمارية الكلاسيكية: (فّرق تسد) سعى بعض الموظفين الفرنسيين إلى جعل سكان منطقة القبائل حلفاء للاستعمار الفرنسي في الجزائر، وبالتالي طبقوا سياسات تحابي القبائليين في التعيين والتعليم، والضرائب ... وفي نفس الوقت شجعوا اللغة البربرية، وقمعوا العربية في مدارس القبائل»[(١)].

ولا يغيب عنك أيها القارئ أنّ مثل هذه الدراسات اللهجية تُعتبر مادة جيدة في المخابرات، واختراق الاستعمار للمناطق العربية، و تطبيقُ المنهج الوصفي بأدبياته كفيل بتحقيق ذلك كله.

٣- الاشتغال بالآخر، وأسئلته :

من أخطر ما مُنى به الفكر الإسلامي دخول المستشرقين فيه، وطرح إشكالات عديدة هي في حقيقتها إثارة وتشكيك أكثر منها قضايا علمية تهدف للوصول إلى الحقيقة، فكل ما ذكرناه من قضايا في هذا البحث قد دارت حوله معارك ثقافية، ومقالات كتبت فيها، وألفت كتب فيها، وعقدت نقاشات وجلسات، و سجلت فيها محاضر علمية، ولو تأملناها

(١) تاريخ الاستشراق وسياساته (ص ١٦٢).

جيداً لو جدنا أكثرها أسئلة الغرب لا أسئلتنا، كأصالة الدراسات اللغوية، وتقسيم اللغات، والبحث عن اللغة الأم، والتطورات اللغوية، والدعوة إلى العامية، ودراسة اللهجات المختلفة، وغيرها من القضايا التي استنزفت العقل العربي، فأصبح لا يفكر إلا داخل هذا الإطار الذي وضعه الاستشراق، والسياجِ الذي خطط له.

الخاتمة :

وفيها نتائج البحث:

١- للحركة الاستشراقية تأثير على الدراسات اللغوية العربية، ومسيرتها.

٢- للاستشراق علاقة بالسياسة، بل أثبت البحث أنّ الاستشراق حركة سياسية.

٣- بناء على النتيجتين السابقتين يؤكد الباحث فرضيته، وهي: السياسة تؤثر في الدراسات اللغوية.

٤- سعى الاستشراق إلى توظيف القضايا اللغوية في سبيل الوصول إلى أهدافه.

المراجع :

أ – الكتب :

- إبراهيم أنيس، من أسرار اللغة، مكتبة الانجلو المصرية، الطبعة الثامنة.
- أحمد درويش، الاستشراق الفرنسي والأدب العربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- إبراهيم السامرائي، العربية تواجه العصر، دار الجاحظ، بغداد.
- فقه اللغة المقارن، دار العلم للملايين، بيروت
- النحو العربي نقد وبناء، دار البيارق، بيروت، الطبعة الأولى.
- أحمد السايح، الاستشراق ميزان في نقد الفكر الإسلامي، الدار المصرية اللبنانية.
- أحمد سمايلوفتش، فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة
- أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، عالم الكتب، القاهرة.
- إدوارد سعيد، الاستشراق، ترجمة محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى.
- الثقافة والإمبريالية، ترجمة كمال أبوديب، دار الآداب بيروت، الطبعة الثالثة

- السلطة والسياسة والثقافة، ترجمة نائلة حجازي، دار الآداب بيروت، الطبعة الأولى.
- إسرائيل ولفنسون، تاريخ اللغات السامية، لجنة التأليف والترجمة والنشر.
- إسماعيل عمايرة، بحوث في الإستشراق واللغة، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- المستشرقون وتاريخ صلتهم بالعربية، دار حنين، الطبعة الثانية،
- المستشرقون والمناهج اللغوية، دار حنين، عمان، الطبعة الثانية.
- المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغوية، دار حنين، عمان ، الطبعة الثانية.
- أنور الجندي، المعارك الأدبية، المكتبة الشاملة.
- أنيس فريحة، نظريات في اللغة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الثانية.
- برجشتراسر، التطور النحوي للغة العربية، تحقيق رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي القاهرة.
- بروكلمان، فقه اللغات السامية، جامعة الملك سعود.
- بيرنارد لويس وآخرون ، الاسشتراق بين دعاته ومعارضيه مجموعة من المؤلفين، دار الساقي.
- تمام حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الرابعة.

- جيرار لكلراك، الأنتروبولوجيا والاستعمار، ترجمة جورج كتورة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية.
- حسن الإمراني، المتنبي في دراسات المستشرقين الفرنسيين، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى.
- رمضان عبد التواب، العربية الفصحى والقرآن الكريم أمام العلمانية والاستشراق، زهراء الشرق، القاهرة.
- فصول في فقه اللغة، الخانجي، القاهرة، الطبعة السادسة.
- ردوي بارت، الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، ترجمة مصطفى ماهر، المركز القومي للترجمة.
- زكاري لوكمان، تاريخ الاستشراق وسياساته ، ترجمة شريف يونس ، دار الشروق، الطبعة الثانية
- سعدون الساموك، الاستشراق ومناهجه في الدراسات الإسلامية، دار المنهاج للنشر والتوزيع، عمان.
- سليمان العايد، موقف النحاة المعاصرين من القراءات: الشيخ محمد عضيمة نموذجًا، بحث غير منشور.
- صلاح الجابري في كتابه الاستشراق قراءة نقدية، دار الأوائل الرباط.
- طارق سري، المستشرقون ومنهج التزوير والتلفيق في التراث الإسلامي، مكتبة النافذة، الطبعة الأولى.

- طه حسين، في الأدب العربي، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، الطبعة الثالثة.
- عبد الحسن الزويني، البحث اللغوي في دراسات المستشرقين الألمان: العربية أنموذجا، جامعة الكوفة.
- عبد الرحمن السيوطي، كتاب الاقتراح في علم أصول النحو، تحقيق: أحمد الحمصي، محمد قاسم، جروس برس، الطبعة الأولى.
- عبد الرحمن العارف، اتجاهات الدراسات اللسانية المعاصرة في مصر، دار الكتاب الجديد، الطبعة الأولى.
- عبد الرحمن منيف، بين الثقافة والسياسة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الرابعة.
- عبد الصبور شاهين، في علم اللغة العام، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة السادسة.
- عبد المتعال الجبوري، الاستشراق وجه الاستعمار الفكري، مكتبة وهبه القاهرة، الطبعة الأولى.
- عبد العزيز الحميد، أعمال المستشرقين العربية في المعجم العربي، من مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود، عمادة البحث العلمي.
- عبده الراجحي، النحو العربي والدرس الحديث بحث في المنهج، دار النهضة العربية، بيروت.

- علي النملة، الاستشراق في الأدبيات العربية، مركز الملك فيصل للدراسات والبحوث، الرياض.
- فيشر وآخرون من المستشرقين، دراسات في العربية، ترجمة سعيد بحيري، مكتبة الآداب، القاهرة،
- كمال بشر، التفكير اللغوي بين القديم والجديد، دار غريب، القاهرة.
- لويس عوض، مقدمة في فقه اللغة العربية، سينا للنشر.
- مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، دار الإرشاد، بيروت.
- محسن الموسوي، الاستشراق في الفكر العربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- محمد حسن زماني، الاستشراق والدراسات الإسلامية لدى الغربيين، ترجمة محمد نور الدين، المركز القومي للترجمة، القاهرة.
- محمد حسين هيكل، ثورة الأدب، دار المعارف- القاهرة
- محمد عبداللطيف حماسة، لغة الشعر دراسة في الضرورة الشعرية، دار الشروق، القاهرة.
- محمود زقزوق، الاسشتراق والخلفية الفكرية للصراع، دار المعارف، القاهرة
- محمود محمد شاكر، أباطيل وأسمار، الخانجي بالقاهرة، الطبعة الثالثة.

- مصطفى السباعي، الاستشراق والمُسْتَشْرِقُونَ (ما لهم وما عليهم)، دار الوراق للنشر والتوزيع.
- مصطفى غلفان، اللسانيات في الثقافة العربية الحديثة، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء.
- مطير المالكي، موقف علم اللغة الحديث من أصول النحو العربي، رسالة جامعية مصورة على الشبكة.
- معن زيادة وآخرون، الموسوعة الفلسفية العربية، معهد الإنماء العربي.
- منصور الغفيلي، مآخذ المحدثين على النحو العربي وآثارها التنظيرية والتطبيقية، مطبوعات نادي القصيم.
- مهدي المخزومي، في النحو العربي نقد وتوجيه، دار الرائد العربي، بيروت، الطبعة الثانية.
- نسيم مجلّي، لويس عوض ومعاركه الأدبية، المجلس الأعلى للثقافة.
- نفوسة زكريا، تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر، دار نشر الثقافة بالإسكندرية، الطبعة الأولى.
- هشام الطعان، مساهمة العرب في دراسة اللغات السامية، الموسوعة الصغيرة، مصور في الشبكة.

ب- المجلات :

- عبد الرحمن الحاج، تأثير النظريات العلمية اللغوية المتبادل بين الشرق والغرب: إيجابياته وسلبياته، مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة، العدد ٩٦.